عـــزَّةُ المسْـــلِم

الدكتور جابر قميحة

تقـــديـم

الحمد لله رب العالمين، معز المؤمنين، ومذل الكافرين، مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

وأصلي وأسلم على خير الخلق أجمعين، خاتم النبيين محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين، وصحابته الأكرمين، والتابعين لهم إلى يوم الدين.

أما بعد :

فإنه لا يخفى على المسلم أن الله سبحانه وتعالى قد أعز الأمة بالإسلام، بأن أخرجها من الظلمات إلى النور، وحولها من عبادة العبيد إلى عبادة ذى العرش المجيد، وبروح «**العزة الإسلامية**» استطاع الرعيل الأول من المسلمين أن يكونوا دائما هم الأعلون، وأن يدكوا صروح البغي والظلم والجبرية، فكانت فتوحهم فتوح عدل وتنوير، وهداية وتعمير، ولم يخضعوا لهوان، ولم تعْنُ جباههم لإنسان، ولم يستجيبوا لمغريات الشيطان، بل كانوا حقا أنجما هادية، وجّهوا وأرشدوا، وبنوا وعمروا، ونشروا نور الرسالة الخاتمة في كل بقاع الأرض.

فتاريخ الرعيل الأول هو تاريخ «**العزة الإسلامية**» بشموخها وإبائها وأنفتها واستعلائها بالحق والإيمان. واستشعار العزة يعانق في قائمة القيم الإسلامية عديدا من هذه القيم كالصبر، والثبات، والنجدة، ورفض الظلم والخنا، فكان هذه العزة بمفهومها الإسلامي السديد الوضيء هى أصل هذه القيم جميعا، ومن ثم يكون استشعارها «عملية» استدعاء لبقية القيم الإسلامية الرفيعة التى تصنع نسيج الشخصية المسلمة، وتوجه مسيرتها.

كان هذا هو الباعث الأول بل الرئيسى للكتابة في هذا الموضوع، وخصوصا ونحن نعيش في زمن أصبحت «الاستهانة بالأمة الإسلامية» وإذلالها هدفا تكالبت على تحقيقه قوى الإلحاد والصهيونية والصليبية العالمية.

ومن البواعث كذلك ما وجدته ضرورة لبيان سبْق الإسلام إلى تكريم الإنسان «بوصفه إنسانا»، مما يدل على عظمة ديننا، كما يدل على عالميته، ويعد ذلك نقضا

عمليا لما يفتريه أعداء الإسلام، ويتقولون به عليه من أكاذيب وأباطيل، وآخر هذه البواعث ما طمحت إليه من أن يكون هذا البحث، وما يدور في فلكه من بحوث العلماء من الأمة « مددا » في عصرنا . . عصر « الغربة والكربة » للمسلمين وبخاصة الشباب حتى يترسموا خطى «**الأعزة**» من سلفنا، ويملئوا نفوسهم بطاقة الإباء واستعلاء الإيمان، في معركتهم الطويلة ضد قوى البغي والعدوان .

* * *

وقد جاء البحث في ستة فصول وخاتمة :

الفصل الأول : يرسم خطوطا للمجتمعات الجاهلية من فرس وروم وعرب وغيرهم، وكان ذلك مهما حتى يستطيع المسلم أن يدرك الفارق الشاسع البعيد بينها وبين ما جاء به ديننا في مجال النفس والمجتمع، والأخلاق والسلوك؛ فبضدها تتميز الأشياء .

* * *

والفصل الثاني : في تكريم الإسلام للإنسان . . . وكيف أنقذه من مستنقع السقوط النفسي والعقلي والاجتماعي في المجتمعات الجاهلية، وكيف قدم الله من القيم السديدة الصحيحة ما يجعل منه « إنسانا جديرا حقا » بخلافة الله في الأرض .

ووضحت في هذا الفصل كيف أن الإسلام كان واقعيا « بوسطيته العادلة في علاج الإنسان » بما قدمه له من قيم تناسب قدرته وإمكاناته، دون تحليق في المثاليات الخيالية التي أثبتت إخفاقها على مدار التاريخ .

وبالإسلام تحرر الإنسان روحا وعقلا، وفكرا، ومعاشا، يحيا حياته في أمن وطمأنينة وسلام، متمتعا بما أنعم الله عليه من نعمة العقل والإيمان، وما يسره له من نعم مادية وأرزاق .

* * *

والفصل الثالث : قدم «مفهوم العزة وأبعادها» فتتبع معناها اللغوي، ومفهومها في القرآن والسنة، وقدم مقتضيات العزة الإسلامية، وما يتطلبه الاستعلاء الإيماني من المسلم، حتى يكون «**عزيزا**» بحق .

وكان لابد أن نعرض كذلك المفهوم «**الشائه المنحرف**» للعزة كما يفهمها الكفار والمنافقون والملاحدة . . حتى يزيد إيماننا بقيمنا قوة ووثوقا . . حين يرى المسلم الفروق

الشاسعة بين مفهوم العزة بأبعادها الإسلامية السوية، ومفهوم العزة بأبعادها الشائهة المنحرفة.

* * *

وفي الفصل الرابع: وضح البحث - في ضوء القرآن والسنة - مصداقية القاعدة الخالدة وهى **أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين**. وبذلك، وأمام هذه المصداقية لا يكون لأعداء الله، وأعداء رسوله، وأعداء المؤمنين من العزة - بمفهومها السوى الوضيء نصيب... أو أثارة من نصيب..

* * *

وجاء الفصل الخامس: عن «العبودية.. العزة» ليكون إجابة مطولة عن سؤال قد يرد على الخاطر وهو: **كيف تستقيم عزة مع عبودية في نفس واحدة؟**

وبتعبير آخر: كيف يكون المسلم **«عزيزا»** بينما هو يستشعر -قولا وعملا وعقيدة- أنه **«عبد من عبيد الله»**.. وهو سؤال يعتمد على المنظور «اللفظى المباشر».. وقد بين البحث أن هذه «العبودية» هى سر العزة، ومصدرها الأصيل.

* * *

ثم كان الفصل السادس والأخير بعنوان (عزة المسلم: الشعور.. والسلوك.. والمصدر) عارضا كيف كانت العزة تتدفق في شعور المسلم، ولكنها لم تتوقف عند ذلك بل انعكست في السلوك والأعمال، فكان «الفعل» تطبيقا حيا للشعور والمعتقد.

أما مصدر عزة المسلم فأجملها الفصل في معنيين أصليين هما:

- كتاب الله وسنة نبيه... مع بيان الأثر القوي لعقيدة التوحيد.

- والقدوة الحسنة.

وقدم البحث نماذج من تاريخنا في عهد النبى ﷺ، وأبى بكر رضى الله عنه، وعمر رضى الله عنه والعصر العباسى، والعصر الحديث.. وكلها تنطق بروح العزة في أبهى صورها وأقواها. وكلها نماذج نحن في أشد الحاجة إلى الاقتداء بها في الأزمات العاتية التى تعيشها الأمة الإسلامية.

* * *

وجاءت الخاتمة بعنوان: من الدونية إلى العزة... ولكن كيف؟.. وفيها تذكرة للمسلم بعظمة الأمة المسلمة في الماضي، أيام أن كان الدين يقودها في مسيرتها المظفرة في العلم والسياسة والحرب والسلم.

وقدمتْ كذلك خطوطا سريعة كعلامات للنهوض من الدونية إلى العزة بمفهومها الحق الجليل، حتى نستعيد مكانتنا بين أمم الأرض. وليس ذلك على الله ببعيد. والحمد لله رب العالمين.

د. جابر قميحة

ذو القعدة ١٤١٩

الفصل الأول

فـي المجْتمعاتِ الجاهِليَّةِ

الإنسانُ بين حَدَّي العُبوديةِ والسّيادة

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!».

هذه الكلمة العمرية تمثل إضاءة تاريخية خالدة لا يستطيع إنسان أن ينكرها أيا كانت ديانته، وأيا كان حظه من العقل والتفكير؛ لأنها حقيقة مشهودة ملموسة: يخرج الإنسان من «ضيق البطن» إلى «سعة الحياة ورحابتها» ينمو مع الزمن، ويسعى في مناكب الأرض ليعيش بما يحصل عليه. وكل ما حوله من مظاهر الكون من صائت كالطير والحيوان، وصامت كالأنهار والأشجار تتمتع بحرية الحركة على اختلاف في النوع والدرجة.

إنها الحرية أصل من أصول الوجود بمن فيه وما فيه، والإنسان هو أوْلى الكائنات بهذا الحق الإلهي بلا نزاع، ويصبح استعباده هو **«العارض الطارئ»** الخارج المتمرد على الأصل الكريم.

وحق لعمر الخليفة العادل أن يصوغ هذه الحقيقة في هذا السؤال الإنكاري ليقرر – بالإضافة إلى الاعتراف بهذه القاعدة الأصيلة الكريمة – استنكار ما يناقضها من استعباد الإنسان للإنسان وتسلطه عليه وإيقاع الظلم به.

* * *

ولكننا نرى – على مدار التاريخ الإنساني كله – أن الجنس البشري – في أغلبه – قد هيْمَن عليه نوعان من العبودية:

عبودية حسِّية: وصورتها أن يكون الإنسان في ملك غيره من البشر، يتصرف فيه بالبيع والشراء، ويستغل قوته وقدراته لمصلحته على اختلاف في طبيعة التعامل وطرقه باختلاف الشعوب، وقد تصل عند بعضها إلى حد إقرار حق السيد في قتل عبده دون مساءلة.

والنوع الثاني هو العبودية المعنوية أو النفسية أو الذاتية، وتتحقق إذا ما عاش الإنسان عادات أو أخلاقيات دنيا تنزل به إلى الدرك الأسفل من منازل الأحياء، فكل همه إرضاء غرائزه الدنيا بالمتع والملاذ والعدوان واتباع الهوى دون ما مراعاة لشرع أو نظام، كما يعيش إمعة مقلدا غيره دون إعمال عقله واستفتائه والاستنارة به في عقيدته وأقواله وأفعاله، فهو – كما يقول ابن تيمية – **عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية – في الحقيقة – هو رقّ القلبِ وعبوديته، فما استرقَّ القلبَ واستعبده**

فهو عبده[1].

وقد يأخذ هذا النوع من العبودية صورة أخرى لا تكون نابعة من «**الذات**»، ولكنها تكون نابعة ابتداء من «**الآخر**»، وهذا الآخر غالبا ما يكون حاكما ظالما يفرض سيادته وغشومته وظلمه على رعيته. والرعية – في هذه الحال – تكون ما بين رافض مُنكِر لهذا الاستعباد، وما بين مستسلم مقر خاضع لما يقع وينزل به، فيعيش برضاه أسير رذيلة منكودة هي الذل، حتى ينطبع بطابع هذه الآفة، ويرى «**من الضيم ألاّ يضام**»، وهو بذلك يكون قد دخل دائرة **العبودية النفسية** برضاه واختياره؛ «لأن القلب الذي هو مَلِكُ الجسم – إذا كان رقيقا مستعبدا متيما لغير الله كان هذا هو الذل والأسر المحْض والعبودية الذليلة لما استعبَدَ القلبَ. وعبودية القلب وأسْره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب؛ فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات»[2].

* * *

والإنسان الذي يعيش هذه العبودية المعنوية يبقى بلا إرادة بصيرة سوية، وهي من أهم ما يميز الإنسان عن باقي المخلوقات في سلوكياته وعلائقه الإنسانية والاجتماعية وهذه الإرادة السوية البصيرة تعتمد وتستمد وجودها وحياتها من العناصر الآتية:

١ – العقل المتزن والتفكير السليم.

٢ – الإحساس الصادق.

٣ – القدرة على الموازنة والتوفيق بين ما هو «**فردي**» وما هو «**جماعي**»، أو بين ما هو «**خاص**» وما هو «**عام**»؛ فالجور على الأول تفريط وتقصير، والجور على الثاني إخلال بالنظام، وإساءة إلى الآداب، وإضرار بالآخرين، وكل أولئك يقود المجتمع إلى الانهيار.

* * *

وفقْد هذه الإرادة السوية البصيرة يئِد معه عديدا من الفضائل الأخرى مثل الشعور بالمسئولية والمروءة والشهامة والتعاطف مع الآخرين والحرص على التطور بالطموح إلى ما هو أحسن وأرقى وأنقى.

* * *

---

(١) ابن تيمية: العبودية ١٠٤.

(٢) ابن تيمية: السابق ١١٦.

وقد سيطرت العبودية النفسية على المجتمعات البشرية أغلب فترات حياتها. ووصف أحد المفكرين المحدثين حال القرنين السادس والسابع لميلاد المسيح[١] وصفا موجزا جامعا بأنهما كانا من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف؛ فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي، وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها، وشدة في إسفافها. وكان الإنسان قد نسي خالقه فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده وقوة التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء منذ زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب... وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذُوا بالأديرة والكنائس والخلوات فرارا بدينهم من الفتن، وضنا بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون وفرارا من تكاليف الحياة وجدّها، أو فشلا من كفاح الدين والسياسة والروح والمادة، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل[٢].

* * *

وحالة التردي هذه التى رأينا خطوطا من ملامحها في القرنين السادس والسابع لم تنشأ من فراغ أو عدم، ولكنها كانت امتدادا لعهود طويلة جداً من السقوط والتردي التي هبطت بالإنسان إلى الحرمان من الحد الأدنى من حقوق الآدمية.

وفي بحثنا هذا نحاول أن نلتقط من مسيرة التاريخ الإنساني – في إيجاز شديد – ما يزيد رؤيتنا وضوحا بادئين بالقانون الروماني الذي بالغ بعضهم فاعتبره «أعظم تراث أورثه العالم القديم للعالم الجديد، ويرى فيه الفقيه الألماني إيرنج **Ihering** عنصرا من عناصر مدنيتنا الحديثة»[٣].

وقبل أن نبدأ بالنظر إلى مركز الرقيق في هذا القانون نشير إلى حقيقة لا خلاف عليها وهي أن الرق كان نظاما أساسيا في حياة الأمم القديمة، وكان كيانها الاقتصادي والاجتماعي مشيدا على هذا النظام، **وكان الرق عاما في جميع الشعوب القديمة معترفا به من جميع الفلاسفة والفقهاء في العصر القديم** باعتباره نظاما ضروريا لا يمكن تصور قيام العالم بدونه، فيقرر أرسطو (٣٨٤ ق. م – ٣٢٢ ق. م) أكبر فلاسفة اليونان أن

---

(١) ولد محمد ﷺ سنة ٥٧١، وبعث نبيا في العقد الأول من القرن السابع الميلادي.

(٢) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٤٥ .

(٣) انظر: مبادئ القانون الروماني لمحمد عبد المنعم بدر وعبد المنعم بدراوي ٣.

الرق مطابق للطبيعة، بل إنه ليسوى بين العبيد والحيوانات، فيقول في كتابه «السياسة»: إن الفائدة من الحيوانات الداجنة ومن العبيد تكاد تكون واحدة؛ فكلاهما يساعداننا بفضل قوتهما الجسدية على تلبية حاجات الوجود»(١).

حتى الذين يرون أن الرق مخالف للطبيعة لأن الإنسان خلق حرا يرون مع ذلك أن الرق ضروري لاستقامة النظام الاجتماعي، ومن هؤلاء الفيلسوف أفلاطون(٢).

ويُرجع القانون الروماني القديم أسباب الرق إلى اعتبارات شتى منها:

١ – **الميلاد**: فأولاد المرأة الرقيقة يولدون أرقاء، أى أن الابن يتبع أمه فيما يتعلق بحالة الحرية، فابن الحرة حر ولو كان أبوه عبدا؛ لأن القانون لا يعترف بزواج العبد.

٢ – **الأسر**: فأسرى الحرب الذين تأسرهم الجيوش الرومانية يصبحون عبيدا عموميين غالبا ما تقوم الدولة ببيعهم. وفي العصر الجمهوري نص القانون على حالات معينة يصير فيها الروماني رقيقا بشرط أن يُسلَّم خارج روما إما بواسطة الحاكم، وإما بواسطة الشخص الذي يخوله القانون حق بيعه ومن هذه الحالات:

أ – للحاكم أن يبيع خارج روما الروماني الذي لم يقيد اسمه في قوائم التعداد، أو الذى يهرب من الحرب أو من التجنيد.

ب – للأب أن يبيع أولاده خارج روما باعتبارهم أرقاء.

جـ – للدائن أن يبيع مدينَه المعسر خارج روما.

د – للمسروق منه إذا ضبط الفاعل حال تلبسه بالسرقة أن يبيعه عبدا خارج روما.

وبالنظر إلى حالة الأرقاء ومركزهم القانوني يعتبر الرقيق – كمبدأ عام – من الأشياء (res)، وليس بشخص (Persona)، فهو يدخل في تكوين ثروة السيد، بل هو عنصر مهم من عناصرها.

وللسيد عليه حق الملكية الكاملة استعمالا وانتفاعا وتصرفا بالبيع، ومن حقه أن ينبذه أو يعدمه. وليس للعبد أسرة ولا مال، ولا ذمة، ولا حقّ في أن يقاضِي أو يقاضَى.

(١) عبد الوهاب الكيالى وآخرون: موسوعة السياسة ٣/ ٨٦٩.

(٢) في سنة ٢٤ ق. م كان عدد العبيد في الامبراطورية الرومانية نحو ٢٠ مليون نسمة مقابل ٢١٤ الف نسمة فقط من المواطنين الأحرار. وكان عدد العبيد في أثينا عام ٣٠٩ ق. م نحو ٤٠٠ ألف عبد، بينما لم يزد عدد الأحرار فيها على ٢١ ألف مواطن. [موسوعة السياسة. السابق ٣/ ٨٧٠].

وهناك حالات متعددة تشبه حالة الرق منها حالة المدين الذي حُكم بإلحاقه بدائنه، فللدائن الذى حصل على حكم بدين من مدينه أن يطلب من الحاكم الاستيلاء على مدينه، فإذا لم يدفع ما حكم به عليه، أوْ لم يقدم كفيلا (Vindex) بالمبلغ المذكور حكم القاضي بإلحاقه بدائنه، وخوّل الدائن حبسه وبيعه بعد ستين يوما وراء نهر «التيبر» أى خارج روما[1].

وبعض هذه القوانين في عهد الجمهورية يعطي الدائن حق قتل المدين، وأكثر من ذلك – كما يذكر ديورانت – نُصّ على حق الدائنين لشخص ما أن يقطعوا جسد المدين العاجز، ويقسموه فيما بينهم.

وفي عهد الامبراطور الروماني جوستنيان الذى تولى حكم الامبراطورية الشرقية (٥٢٧ – ٥٦٥) اشتهرت المجموعات التى وضعها لكل فروع القانون الروماني، وكان لها من الأثر والأهمية ما كان لمجموعات نابليون التى وضعت في القرن التاسع عشر[2].

ولكن هذا القانون – وإن نظم العقود والتعامل إلى حد ما – **قد حمى الأشراف، وحمى لهم حقوقا، فقد قرر لهم ما يأتي:**

١ – أن بعض الرعايا ممن ليسوا رومانا بالسلالة ليس لهم حقوق الرومان؛ فهم جميعا كالعبيد يعملون لأجل الرومان، ولتشبع بطونهم، وحرموا من كل الحقوق التي يفرضها القانون الروماني للسلالة الرومانية.

٢ – معاملة العبيد معاملة الأشياء لا الآدميين، وجريمة العبد تضاعف لها العقوبة، وجريمة الروماني يخفف لها العقاب.

٣ – اعتبار الزوجة وكأنها مملوكة للزوج، فليس لها شخصية مستقلة، حتى أن بعض الباحثين اعتبر عقد الزواج عقد رق بالنسبة للمرأة، وهي قبل الزواج كانت في رق أبيها[3].

* * *

---

(١) انظر مبادئ القانون الروماني ١٧٣ – ١٩٣ (مرجع سبق). وديورانت: قصة الحضارة: الجزء الأول من المجلد الثالث ٤٨ – ٤٩.

ومو سوعة السياسة ٣/ ٨٦٨ – ٨٧١.

وصوفي أبو طالب: مبادئ تاريخ القانون ٢٠٩ – ٢١١.

(٢) أبو طالب: السابق ١٤٦.

وإن أردت التفصيل فانظر ١٤٦ – ١٦٣.

(٣) انظر لمحمد أبي زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع ٥ – ٦.

وفي العصور الوسطى[1] وقف العديد من مفكري الكنيسة إلى جانب الحفاظ على نظام العبودية إما لأسباب نفعية أو أخلاقية: فالقديس أوغسطينوس (٣٥٠ - ٤٣٠ م) مثلا كان يعتبر أن العبودية عقاب مفروض على الإنسان المذنب، فبرأيه أن الإنسان هو كائن عاقل خلق على صورة الله ومثاله؛ وبالتالي فعليه أن يكون حرا، إلا أن الخطيئة هي التي تجعل الإنسان يستعبد الإنسان طيلة حياته، ومثل هذا لا يمكن أن يحدث إلا بحكم الله الذي لا يعرف الظلم، والذى يعرف كيف يكيل العقاب لمن يستحقه[2].

وواضح أن هذا القديس - بمنطقه الغريب - يحاول تقنين العبودية أو تبريرها وتبرير تأبيدها تبريرا لاهوتيا؛ حتى يستمر الأرقاء على وضعهم اللاإنساني عن رضا وقناعة واقتناع.

ويتبنى **توما الأكويني** (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م) فكرة أخرى وإن تغيَّتْ نفس الهدف، فهو يعتبر أن العلاقات بين الأسياد والعبيد ينبغي أن تكون خارج إطار العدالة الرسمية أو الحكومية؛ لأن العبد ملك خاص للعائلة أو للشخص، في حين أن القانون لا يتعلق إلا بالمصلحة العامة للمدينة أو للمملكة، بل هناك نوع من العدالة الاقتصادية التي يمكن وصفها بالمنزلية»[3].

وتبنى اللاهوت المسيحي عقيدة الخطيئة الأولى خطيئة آدم وحواء، فكل آدمي ولد نتيجة لاتصال الرجل بالمرأة يولد ملوثا بالخطيئة الأولى، معرضا للعقوق والموت؛ ولهذا فهو طفل مغضوب عليه لا ينجيه من الخبث واللعنة إلا رحمة الله وموت المسيح الذي كفر عن آثامه.

وبعثت هذه الدعوة في الكثيرين من الناس في العصور الوسطى شعورا بأنهم مفطورون على الدنس والانحطاط والإجرام[4].

على أن الكنائس في أوروبا قد اتخذت الأرقاء، وأباحت لغيرها اتخاذهم، كما أن كثيرا من الناس كانوا يذهبون إلى استحسان ذلك، واعتباره من أحسن الوسائل لمنع الناس من السؤال، ولقطع دابر السارقين وقطاع الطرق.

---

(١) يقصد بها فترة من عصور التاريخ الاوروبي، ويقال إن بدايتها كانت بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٦م. وتنتهي باكتشاف كولومبس لامريكا ١٤٩٢. وكثيرون يصفون العصور الوسطى بالعصور المظلمة.
[انظر: موسوعة السياسة ٤/ ١٢١].

(٢) موسوعة السياسة ٣/ ٨٦٩.

(٣) موسوعة السياسة ٣/ ٨٦٩.

(٤) انظر: ديورانت: قصة الحضارة الجزء الخامس من المجلد الرابع ١٧٥ - ١٧٦.

وأقبح أنواع الاسترقاق ما كان في أمريكا الشمالية . . . إذ نحا كثير من الأمريكيين نحو ما كان عند الأمم السالفة من اليهود والفرس والرومان على ما هم عليه من العلم والتحضر، فكان الأمريكى الأبيض النصراني يملك الأَمَةَ السوداء، ويولدها البنين، على أنه – مع ذلك – لا يعتبرها أم ولده كما فعل الإسلام، بل كان لابنه الأبيض أن يبيعها، ويبيع ذريتها الذين هم إخوته من صلب أبيه(١).

يقول ديورانت : إن الصورة التى تنطبع في أذهاننا بوجه عام لتوحي بأن الثغرة الفاصلة بين نظرية الخلق الطيب وحقيقته في العصور الوسطى أوسع منها في أى عصر آخر من عصور الحضارة؛ ذلك أن العالم المسيحي في تلك العصور لم يكن يقل عنه في عصرنا اللاديني الحاضر ابتلاء بالشهوات الجنسية والعنف وإدمان الخمر والقسوة والفظاظة والدنس والشره والسطو والخيانة والتزوير، ويلوح أنه يفوق عصرنا الحاضر في استعباد الأفراد، ولكنه لم يكن يضارعه في الاستعباد الاقتصادي للأقاليم المستعمرة أو الدولة المغلوبة، وقد فاقتنا في إذلال النساء، ولكنه لا يكاد يضارعنا في عدم الاحتشام وفي الفسق والزنا، وفي الحروب الضروس، وفي كثرة من يقتلون فيها(٢).

* * *

وأشد من العبودية الحسية أو المادية ما كان في هذه المجتمعات من عبودية الهوى المتمثلة في الإباحية الجنسية، والحرص على إرضاء الشهوة البهيمية في صورة مندفعة شاذة . ففي أثينا لم يكن الأثينيون يرون في اتصال الشبان بالخليلات من آن إلى آن شيئا من العار، ولقد كان في وسع المتزوجين أنفسهم أن يبسطوا حمايتهم على تلك الخليلات . وكانت أثينا تعترف بالبغاء رسميا، وتفرض ضريبة على البغايا .

وأصبح العهر في أثينا – كما أصبح في معظم مدن اليونان – مهنة كثيرة الرواد ذات فروع مختلفة لكل فرع إخصائيات، وكانت السبل ميسرة أمام ذات الكفاية للترقي في هذه المهنة، كما كانت ميسرة للترقي في غيرها من المهن في تلك المدينة(٣).

وكان في وسع الرجل أن يتخذ له – فضلا عن زوجته – خليلة يعاشرها معاشرة الأزواج . **وفي ذلك يقول دمستين**: إنا نتخذ العاهرات للذة، والخليلات لصحة أجسامنا اليومية، والزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين ويعنين ببيوتنا عناية تنطوي على الأمانة

---

(١) عبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة ٧٠ .
(٢) قصة الحضارة: السابق ٢٢٤ .
(٣) قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الثاني ١٠٣ – ١٠٤ .
وانظر لمحمد فريد جنيدي: البغاء ٢٣ .

والإخلاص(١).

وكان من السهل على الرجل أن يطلق زوجته، وكان في وسعه أن يطردها من بيته متى شاء، من غير أن يبدي لذلك سببا، وكانوا يرون عقم الزوجة سببا كافيا لطلاقها؛ لأن الغرض من الزواج عندهم هو إنجاب الأبناء. أما إذا كان الرجل نفسه عقيما فقد كان القانون يجيز، والرأي العام يحبذ أن يستعين الزوج في هذه المهمة بأحد أقربائه، وكان الطفل الذي يولد نتيجة لهذا الاتصال ينسب للزوج نفسه(٢).

* * *

وكانت **اسبرطة** دولة عسكرية؛ فالجيش عماد السلطة فيها، ومناط فخرها، وكان كل مواطن يدرب تدريبا حربيا، وكان عرضة لأن يدعى إلى الخدمة العسكرية فيما بين العشرين والستين من عمره.. والموت في ميدان القتال هو أعظم الشرف ومنتهى السعادة. وفي سبيل إعداد الرجال الأقوياء، واعتناق منطق القوة استخدمت وسائل وارتكبت أعمال وتصرفات «قانونية» تتعارض مع الحد الأدنى لكرامة الإنسان، **ومنها على سبيل التمثيل:**

١ - عدم اعتراف الدولة إلا بالأطفال الأسوياء الأقوياء فكان يؤتى بالطفل أمام مجلس من مجالس الدولة وقد كانت مكونة من مفتشين، فإذا ظهر أن الطفل مشوه ألقى به من فوق جرف في **«جبل تيجيتس»** ليلقى حتفه على الصخور القائمة في أسفله.

٢ - تشجيع الأزواج على أن يعيروا زوجاتهم إلى رجال ذوي قوة ممتازة غير عادية حتى يكثر بذلك الأطفال الأقوياء. ويستعين الأزواج المرضى والذين أعجزتهم الشيخوخة بشبان ليعينوهم على تكوين أسر قوية.

٣ - وكان الولد الإسبارطي يؤخذ من أسرته في السابعة من عمره لتتكفل الدولة بتربيته، فكان يُسْلك في فرقة عسكرية هي في الوقت نفسه فصل مدرسي... وكان عدد من الشبان يختارون كل عام أمام **«مذبح أرتميس أرتيا»**، وتلهب أجسادهم بالسياط حتى تخضب دماؤهم الحجارة.

وإذا بلغ الولد الثانية عشرة من عمره منعت عنه ملابسه السفلى، ولم يسمح له إلا بثوب واحد طوال أيام السنة، ولم يكن يستحم كثيرا كالغلمان الأثينيين؛ لأن الماء

---

(١) قصة الحضارة السابق ١١٤.

(٢) السابق ١١٥.

والأدهان تجعل الجسم ليّنا رخْوا(١).

* * *

أما **فارس** التي شاطرت الروم في حكم العالم المتمدن فكانت الحقل القديم لنشاط كبار الهدامين الذين عرفهم العالم؛ كان أساس الأخلاق متزعزعا مضطربا منذ عهد عريق في القدم حتى أن «**يزْدِجَرْد الثاني**» الذى حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بنته، ثم قتلها، وأن «**بهْرام جوبين**» الذي تملك في القرن السادس كان متزوجا بأخته(٢).

وأمام الإسراف والإغراق في الشهوات والملاذ البهيمية ظهر «**ماني**» في القرن الثالث الميلادي **يدعو إلى فناء بني الإنسان ليتخلص العالم من شرورهم**، فقد دعا إلى تحريم الزواج ليتسارع العالم إلى الفناء، ويقرر أنه لا خلاص لعنصر الخير في هذا الكون من الشر إلا إذا فني الإنسان، وكأنه يرى أن الإنسان لعنة في هذا الوجود؛ لأنه لم يَر في مجتمعه إلا شرورا وآثاما، وفتنا وانقساما(٣).

وانتهى الأمر في يد «**بهرام بن هرمز**» سنة ٢٧٦ م، وقتل أصحابه ومن دخل في ملته(٤).

* * *

وكردّ فعل على الحرمان الذي دعا إليه المانوية ظهرت المزدكية على يد «مزدك» الذى ولد سنة ٤٨٧م، فأخذ ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال . ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أحل مزدك النساء، وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ(٥).

وقال المزدكية إن الله إنما جعل الأرزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتآسي، ولكن الناس تظالموا فيها، وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء، ويردون من المكثرين على المقلين، وأنه من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره.

---

(١) قصة الحضارة: الجزء الأول من المجلد الثاني ١٥٣ ـ ١٥٥ .

(٢) الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

(٣) أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع ٩ .

(٤) تاريخ الطبري ٢/٥٣ . وانظر في تفصيل الدعوة المانوية: الملل والنحل للشهرستاني ٢/٤٩-٥٤ .

(٥) الملل والنحل ٢/٥٤ .

فافترص السفلة ذلك واغتنموه، وكاتفوا **مزدك** وأصحابه وشايعوهم، فابتلى الناس بهم، وقوى أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم.. ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده، ولا المولود أباه، ولا يملك الرجل شيئًا مما يتسع به[١].

* * *

ومن الخلل العقدي الذي يسقط مكانة الإنسان استعباد الراعي للرعية، فقد كان أكاسرة الفرس يدّعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الناس ينظرون إليهم كآلهة، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئًا علويًا مقدسًا.. ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر، وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة.

وكذلك كان اعتقاد الناس في البيوتات الروحية والأشراف من قومهم، فيرونهم فوق العامة في طينتهم، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم، ويعطونهم سلطة لا حدّ لها، ويخضعون لهم خضوعًا كاملاً[٢].

* * *

والخط المشترك –على مدار هذا التاريخ القديم– بين الشعوب والقادة على اختلاف منازلها ومواقعها كان مطبوعًا بالفوقية والدونية أى **السيادة والعبودية** ولعل هذا ما دفع بعض المفكرين إلى تفسير تاريخ المجتمعات القديمة من خلال **جدلية السيد والعبد** وإلى اكتشاف علاقة حتمية وضرورية بين وسائل وقوى الإنتاج وبين البنية القانونية والسياسية وما تتضمنه وتفترضه من تمييز بين أحرار وعبيد[٣].

أما مجتمع الجاهلية العربية فإن صحابيا جليلا هو **جعفر بن أبي طالب** يرسم –في دقة وإيجاز– أبعاد هذا المجتمع في الكلمة التي وجهها إلى نجاشي الحبشة حين هاجر المسلمون إليها فارين بدينهم «**أيها الملك: كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف**»[٤].

فقائمة القيم الجاهلية كانت غاصة بالانحرافات والاختلالات التى تجرد الإنسان من طوابع الإنسانية، ومنها: عبادة الأوثان وأكل الميتة، وإتيان الفواحش، وقطع الأرحام،

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٩٢–٩٣.
(٢) انظر الندوي: مرجع سبق ٥٤–٥٧.
(٣) موسوعة السياسة ٣/٨٦٩.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٣٦.

والإساءة إلى الجار، ومنطق القوة والعدوان، وغير ذلك كثير.

ومن عجب أن يغدو الظلم والبغي فضيلة يُفْخر بها، يقول الشاعر الجاهلي **عمرو بن كلثوم** مفتخراً بقومه:

بغـــاةً ظـالمين ومـــا ظُلِمْنـا ولكـنّا سنبـــدأ ظـالميـنا[1]

وقد يمتد الظلم والعدوان إلى أقرب الأقرباء، على حد قول الشاعر:

وأحـيـــانا على بكرٍ أخـيـنا إذا مـــا لَمْ نجـدْ إلا أخـانا[2]

ولأتفه الأسباب كانت تقوم الحروب الشعواء، وتمتد لعشرات من السنين تأكل أبطال القوم وتخرب ديارهم ومضاربهم ومنتجعاتهم، وتغرس العداوة والبغضاء في القلوب، وتنشر القلق والخوف والاضطراب بين الناس، كحرب البسوس التي قامت بين بكر وتغلب من أجل ناقة[3]، وحرب **داحس والغبراء** التى اشتعلت بين عبس وذبيان من أجل سباق بين فارسين[4].

ويحكى لنا التاريخ عن المجتمع الجاهلي وسيادة منطق القوة فيه، أن الجاهلي إذا قابل آخر معه ظعينة، وليس من قبيلته ولا مِنْ قبيلة لها معها حلف تقاتلا، فإذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبيّة، فاستحلها بذلك الغالب، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار في مدة حياتهم؛ ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه حرة نسيبة، لا سبيّة جَلبية[5].

* * *

وكانت الـ **(أنا)** ذائبة في الـ **(نحن)** أى كانت **ذاتية الفرد** ذائبة في **جماعية القبيلة**، فهو لها في الخير والشر بلا جدال على حد قول الشاعر:

ومـــا أنا إلا من غَـــزيّةَ إن غَـــوتْ غـويتُ، وإنْ ترشـدْ غـزيةُ أرشُـدِ[6]

وكان هناك أكل السحت، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والإيمان بالأزلام، ولعب الميسر، والحرص على الخمر والتفنن في شربها، وافتخارهم بالحرص عليها ومعاقرتها، وإتلاف المال من أجلها. وفي ذلك يقول **عنترة بن شداد**:

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٥١.
(٢) البيت للشاعر عمير بن شبيم. ديوان الحماسة ١/١٣٠.
(٣) انظر الأغاني ٥/١٦٧٨-١٧٠٨.
(٤) انظر الأغاني ١٦/٦٤٧٨-٦٥٠٢.
(٥) محمد الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١/٢٠.
(٦) الأصمعيات ١٠٦. والبيت للشاعر الجاهلي دريد بن الصمة.

وإذا شربتُ فإنني مستهلكٌ مالي وعرضي وافرٌ لم يُثلَمِ[1]

وبعضهم كان يسرف في ذلك كل الإسراف، يتلف كل ماله على خمره ولذته حتى تتبرأ منه القبيلة كما يقول **طرفة بن العبد**:

وما زال تَشْرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتْلدي
إلى أن تحامَتني العشيرة كلها وأُفرِدْتُ إفرادَ البعير المعبَّدِ[2]

ثم استهانوا بالحياة لكثرة حروبهم وتوقعهم الفجيعة في أنفسهم وأحبائهم، فانكبوا على لذات الحياة ينهلون منها ويعلوّن، وهذه خلة ما زالت إلى الحرب قريبة، وكانت في كل حرب حتى قالوا: إن أنهار الدماء وأنهار الخمر كانت تجري في الثورة الفرنسية، ثم هم بين غالب ومغلوب: غالب سبى وغنم وظفر، فيعب الخمر بهجة ونشوة.. ومغلوب كسر وسلب ماله، وأسرت نساؤه ورجاله وفجع في أحبائه، فأظلمت حياته، وضاق بالدنيا، وضاقت به، فيلوذ بالخمر يتناسى بها همه ملاوة من الزمن[3].

* * *

وكانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة، وكان أساسها جاهليًا تمثله الجملة المأثورة عند العرب **«انصر أخاك ظالمًا أو مظلوما»**، فكانوا يتناصرون ظالمين أو مظلومين.

وكانت هناك طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلاً على غيرها وامتيازاً، فتترفع على الناس، ولا تشاركهم في عادات كثيرة حتى في بعض مناسك الحج، فلا تقف بعرفات، وتتقدم على الناس في الإفاضة والإجازة[4]، وقد أشار الله -سبحانه وتعالى إلى ذلك في قوله ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٩٩﴾﴾[5] أى انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزدلفة، والخطاب لقريش، حيث كانوا في الجاهلية يترفعون على الناس أن يقفوا معهم وكانوا يقولون: نحن أهل الله وسكان حرمه، فلا نخرج منه فيقفون في المزدلفة لأنها من الحرم، ثم يفيضون منها، وكانوا يسمون الحُمْس»[6].

ويضيق بنا المقام لو رحنا نتتبع مظاهر التفاوت الطبقي في هذا المجتمع، فطبقة السادة

---

(١) البيت من معلقة عنترة. انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي ٢٠٢.
(٢) التبريزى: السابق ٨٦.
(٣) أحمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٣٥٠.
(٤) الندوي: مرجع سبق ٧٠.
(٥) سورة البقرة: [١٩٩].
(٦) الصابوني: صفوة التفاسير ١/ ١٣٠.

الأثرياء كانوا يحتكرون كل شيء في المدن، ويرون أنهم أحق من غيرهم بكل امتياز وكل مكرمة، حتى أنهم استنكروا أن ينزل القرآن على رجل فقير هو محمد ﷺ، ولا ينزل على سيد مكة **الوليد بن المغيرة** أو سيد الطائف **عروة بن مسعود الثقفي** ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** (٣١) ﴾(١).

وكان هؤلاء السادة يريدون من رسول الله ﷺ **«ثمنا لإسلامهم»**، وذلك بأن يبعد عن مجلسه الفقراء من أمثال أبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي، فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** (٢٨) ﴾(٢).

* * *

أما العبيد في هذا المجتمع الجاهلي فكانوا كذلك مجرد أشياء تقتنى بلا حقوق، وكانوا وسيلة خدمة وإنتاج، ويصل حق السيد في العبد إلى القتل دون مساءلة، ومن أدلة ذلك ما نزل بالعبيد الذين أسلموا من تعذيب رهيب بسبب إسلامهم، حتى الإماء لم يسلَمْن من هذا التعذيب بسبب إسلامهن وكنّ خمساً في بيوت مختلفة، وقد اشتراهن أبو بكر رضي الله عنه وأعتقهن، كما اشترى بلالاً وعامر بن فهيرة وأعتقهما(٣).

* * *

ومن الأمراض الاجتماعية والعادات القبيحة في هذا المجتمع عادة وأد البنات التى أشار إليها القرآن الكريم بقوله

﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ** (٥٨) **يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** (٥٩) ﴾(٤).

ويقال إن الرجل في الجاهلية كان إذا ظهر آثار الطلْق بامرأته توارى واختفى عن القوم إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً ابتهج به، وإن كانت أنثى حزن، ولم يظهر للناس أياماً يدبر فيها ماذا يصنع بها، وهو قوله: **«أيمسكه على هون أم يدسه في التراب»**. ومن

(١) سورة الزخرف: [٣١]. وانظر السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول ١٢٨، ١٨٨.
(٢) سورة الكهف: [٢٨]. وانظر أسباب النزول للواحدي ٢٤٤-٢٤٥. ولباب النقول للسيوطي ١٤٤. وفي النظام الطبقي لهذا المجتمع انظر محمود عرفة محمود العرب قبل الإسلام ٣٦٩-٣٧٧.
(٣) انظر سيرة ابن هشام ١/٣١٨-٣١٩. وطبقات ابن سعد ٣/١٣٧-١٣٩.
(٤) سورة النحل: [٥٨، ٥٩]. كظيم: ممتلىء غما. هون: هوان.

الجاهليين من يحفر الحفيرة، ويدفن الأنثى فيها إلى أن تموت، ومنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها.. وهم كانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية، وتارة خوفًا من الفقر والفاقة ولزوم النفقة(١).

ومنهم من كان يئد البنات لآفة أو عيب خلقي، أو صفة لا يستحسنها بأن تكون البنت زرقاء، أو شيماء (سوداء)، أوْ برشاء (برصاء) أو كسحاء، تشاؤما منهم بهذه الصفات(٢).

وقد يكون من أسباب كراهية البنت عند بعض العرب التأثر بالديانة الموسوية القديمة، إذ كانت الأسرة تتلقى ولادة البنت بغير ارتياح ولا عطف، بينما كانت ولادة الذكر موجبة للفخار، ومعتبرة بركة علوية، أما الأم – فبنص التوراة – تظل نجسة خمسة عشر يومًا إذا وضعت بنتًا، وعليها أن تقضي سبعين يومًا في تطهير نفسها، أما إذا وضعت ولدا ذكرًا فمدة النجاسة ثمانية أيام، ومدة التطهير خمسة وثلاثون يومًا(٣).

ويرى بعض الباحثين أن الوأد لم يكن عامًا، وأن الكثرة الكثيرة من القبائل في الجاهلية لم تئد بدليل بقاء النساء يلدن، وبدليل حب الشعراء والرجال للمرأة وفخارهم بها.. ويقال إن **صعصعة بن ناجية** جد الفرزدق كان يفدي الضحايا، فجعل على نفسه ألا يسمع بموءودة إلا فداها، فجاء الإسلام وقد فدى ستا وتسعين موءودة، وقيل ثلاثمائة، وقيل ثلاثمائة وستين، وقيل أربعمائة حتى لقب بمحيي الموءودات(٤).

ويقال إن **زيد بن عمرو بن نفيل القرشي** كان كذلك يستحيي الموءودات، فإذا بصر برجل يهم بوأد ابنته قال له: لا تقتلها؛ أنا أكفيك مئونتها ويأخذها، وينفق عليها حتى تكبر، ثم يقول لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مئونتها(٥).

فوأد البنات –وإن ترفعت عنه كثير من القبائل ذات القوة والمنعة – كان له وجوده على نحو من الأنحاء في الجزيرة العربية ومن جانب آخر – وهو من غرائب ما ينقله لنا تاريخ المنطقة – أن منهم من كان ينذر إذا بلغ بنوه عشرة نحر واحدًا منهم، وأشهر من

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٥/ ٣٢٢.
(٢) الألوسي: بلوغ الأرب ٣/ ٤٥.
(٣) جان أمل ريك: مركز المرأة في قانون حمورابي وفي القانون الموسوي ٣٦–٣٧. وراجع كذلك من العهد القديم أسفار الملوك والتكوين والأحبار. وفي التطهير والاعتراف راجع: لأحمد شلبي: اليهودية ٣٠٣. وارجع كذلك إلى كتاب أحمد غنيم: المرأة منذ النشأة بين التجريم والتكريم ١٥–٣٤.
(٤) انظر الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ١٦٧–١٦٨.
(٥) بلوغ الأرب للألوسي ٣/ ٤٥.

نذر ذلك عبد المطلب بن هاشم الذى ضرب القداح عند هبل، فخرج القدح على عبد الله، فصار يضرب القداح ويخرج القدح عليه. وهو يزيد من الإبل عشرة عشرة إلى أن بلغت مائة فنحرها فداء له(١).

* * *

ولم تكن المرأة في العصر الجاهلي تأخذ ميراثًا، بل كان الميراث للذكور لأنهم الذين يكون بهم النصرة، ولم تكن قرابة الأم ذات اعتبار بل كان الاعتبار كله لقرابة الأب(٢).

وبعض **أنظمة الزواج في الجاهلية** كانت إساءة إلى كرامة المرأة، بل آدميتها، ففى صحيح البخاري(٣) من حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ما أخبرت به عروة بن الزبير: **أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء(٤): فنكاح منها نكاح الناس اليوم(٥): يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيُصْدقها، ثم ينكحُها.**

ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه(٦). ويْعتزِلُها زوجها، ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع مه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب. وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع(٧).

ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرّ ليال بعد أن تضع حملها أرسلتْ إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتهم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمّي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون، فالْتاطته به(٨)، ودُعِيَ ابنَه لا يمتنع عن ذلك.

---

(١) اقرأ تفاصيل القصة في السيرة النبوية لابن هشام ١/١٥١-١٥٥ وتاريخ الطبري ٢/٢٤٠-٢٤٣.

(٢) أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع ١٣.

(٣) فتح الباري ٩/٨٨: كتاب النكاح (٦٧). باب من قال لا نكاح إلا بولي (٣٦) حديث ٥١٢٧.

(٤) أنحاء: جمع نحو، أي ضرب ونوع. (٥) أى المتبع في شريعة الإسلام.

(٦) اطلبي منه المباضعة وهي الجماع، من البضع وهو الفرج.

(٧) وهذا النوع يذكرنا بما كان متبعًا في «اسبرطة» من إعارة الزوجات لرجال أقوياء للحمل منهم (انظر ص ١٤ من هذا البحث).

(٨) استلحقته به، ونسبته إليه.

فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم.

وهناك أنواع أخرى من الأنكحة لم تذكر في الحديث السابق، منها: **نكاح الخدن**، وهو المذكور في قوله تعالى ﴿**ولا متخذات أخدان**﴾ كانوا يقولون: ما استُتِر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم. **ونكاح المتعة، ونكاح البدل**. والبدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: انزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك(١).

وفي الجاهلية كان ما يسمى «**نكاح الضَّيْزَن**»: فكان الرجل إذا مات، وترك زوجته وكان له أولاد من غيرها ورث نكاحها أكبرُ أولاده في جملة ما يرث من مال أبيه، فإذا أعرض عنها انتقل حقه إلى الذي يليه، فتصبح زوجة لمن وقعت في نصيبه من أولاد زوجها من غير مهر ولا عقد. وإذا لم يكن للميت ولد يرث نكاحها انتقل الحق إلى أقرب أقرباء الميت. وكان من حق الولد الذي آلت إليه زوجة أبيه أن يمنعها من الزواج إلا إذا أرضته بمال، وقد أطلق على هذا الوارث اسم «الضيزن». وإذا تزوج ابن الميت زوجة أبيه كان أولاده منها إخوته(٢).

وكانت بعض القبائل العربية في الجاهلية تنظر إلى هذا الزواج نظرة اشمئزاز واحتقار؛ لذلك أطلقوا على هذا الزواج اسم «**زواج المَقْت**»(٣).

* * *

وما قدمناه آنفا لا يزيد على خطوط عريضة لنسيج المجتمعات الثلاثة: الروماني والفارسي والعربي قبل الإسلام لنخلص منها إلى تبين مركز الإنسان في هذه المجتمعات، وهو «الموجود» الذي لا قيمة للوجود إلا به، وقد رأينا أن هذا المخلوق الذي كرّمه الله بالعقل دون سائر المخلوقات انحرفت به «**قوى ذاتية**» وأخرى «**غيْريّة**» عن المسار الكريم إلى مستنقعات المهانة والذل والانحراف.

ولكننا – من قبيل الإنصاف– نقرر في هذا المقام أن **المجتمع العربي في الجاهلية كان أقل سوءاً وانحرافًا من هذه المجتمعات الأخرى** كالمجتمعات الرومية والفارسية والهندية؛ فهو على ما كان فيه من الرذائل **لم يَخْلُ من قيم** إنسانية جليلة كالشجاعة الفائقة والكرم والبطولات الرائعة حتى كان الموت حتف الأنف عاراً ما بعده عار.

---

(١) فتح الباري ٩/ ٩٠. وانظر: الاعتصام للشاطبي ٢/٣١٩-٣٢٠.

(٢) عبد السلام الترمانيني: الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام ٣٢ وانظر أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ١/١٧٩-٨٠/.

(٣) الألوسي: بلوغ الأرب ٢/٥٣.

وكثيرون كانوا يعتزون بحريمهم وبناتهم وأمهاتهم. والتاريخ يحكى لنا أن الشاعر الفارسى **عمرو بن كلثوم** قتل الملك الجبار **عمرو بن هند** لأن أم الملك لطمت أمه، وبهذه المناسبة أنشد معلقته التي يقول فيها:

بأيِّ مشيئةٍ عمرو بن هند   تُطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددْنا وأوْعِدْنا رويداً   متى كنا لأمِّك مُقْتوينا[1]

وفي العرب كرام مشاهير مثل **حاتم الطائي** الذى ضرب به المثل في الكرم[2]، وكانت أمه **غنية بنت عفيف بن عمرو** وكذلك ابنته **سفَّانة** من أسخى الناس وأقراهم للضيف[3].

وسفانة بنت حاتم الطائى هى تلك التي كانت في أسرى طيء، وخاطبت رسول الله ﷺ قائلة: يا محمد هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عني فلا تشمت بي أحياء العرب؛ فإني بنت سيد قومي، كان أبي يفك العاني، ويحمي الذمار، ويقري الضيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشى السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا بنت حاتم الطائي. **فقال لها رسول الله ﷺ**: يا جارية هذه صفة المؤمن لو كان أبوك إسلاميًا لترحمنا عليه. خلوا عنها؛ **فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق**. ثم أسلمت وحسن إسلامها[4].

* * *

ومن مظاهر النخوة والنجدة والمروءة **حلف الفضول** الذى عقده رجال من قريش في دار **عبد الله بن جدعان** بسبب ظلم أنزله العاص بن وائل برجل من زبيد. وفي الحلف تعاهد الرجال على **ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، لذلك سمي الحلف بحلف الفضول**.

وقد شهد محمد ﷺ الحلف في شبابه قبل أن يبعث بقرابة عشرين عاماً، وبعد أن

---

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/ ٢٤٠-٢٤٢. تزدرينا: تحتقرنا. مقتوين: خدم. والقصيدة كلها في: شرح المعلقات العشر للتبريزى ٢٢٠-٢٥٢.
ووازن بين هذا الموقف، وموقف إخوة الشاعر الجاهلي الأسعر الجحفي الذى قتل أبوه وهو غلام، فأكل الإخوة الكبار دية أبيهم وباعوا فرسه، وأخذوا يسمنون أمهم، وزوجوها - بل باعوها- لعلج ثري، ولم يرعوا حرمة أبيهم وأمهم. وللأسعر شعر في هجائهم (الأصمعيات ١٤٠).
(٢) انظر مجمع الأمثال للميداني ٢/١١٨.
(٣) ولهما في الكرم قصص عجيبة عرض أبو على القالي بعضها في ذيل الأمالي ٢٣.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٣٣-١٣٤. والطبقات الكبرى لابن سعد ١/١٨٢-١٨٣.

بعث نبيًا ورسولاً قال «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدْعَى به في الإسلام لأجبت**».

ولم يعدم المجتمع الجاهلي «**الصوت الآخر**» الذي يعارض الأغلبية، وهو صوت قد ينتصر علانية على رءوس الأشهاد، وقد لا يكتب له النصر، وقد يستتر أصحابه، ولكنهم -على أية حال- يؤدون دوراً في جانب الفضيلة والمروءة والأريحية بقدر ما يستطيعون وإن اختلفت البواعث والدوافع. وقد ظهر ذلك في مواقف بعض القريشيين - على كفرهم - بعد تضييق قريش على رسول الله ﷺ وكتابتهم **صحيفة المقاطعة**، وفيها تعاقدوا ألا يناكحوا بني هاشم وبني المطلب، ولا يبايعوهم، ولا يكلموهم، ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم محمداً ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة، وعلقوها في جوف الكعبة. وعزل النبي ﷺ ومن معه في شعب أبي طالب نحواً من ثلاث سنوات في محنة عاتية وحرمان وجوع.

وفي هذا الجو المكروب العاني أبى بعض الرجال -على كفرهم- إلا أن يسلكوا سبيل الشهامة والرجولة والنخوة مثل **حكيم بن حزام** وكانت تأتيه العير تحمل الحنطة من الشام فيوجه بعضها -تحت ستار الظلام- إلى الشعب، ويضرب أعجازها فتدخل الشعب، فيأخذ المحصورون ما عليها من الحنطة.

ومثله كان **هشام بن عمرو** : يوقر البعير طعامًا حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم. ولم يكتف بذلك بل سعى إلى كرام القوم لنقض الصحيفة فاستجاب له بعضهم، ونجح الرجل في مسعاه، وشقت الصحيفة، وقيل إن الأرضة لحست كل ما كتب فيها ولم يبق بها إلا اسم **الله**. ولبس هؤلاء الرجال السلاح ثم خرجوا إلى المحصورين في الشعب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا، فلما رأت قريش ذلك سقط في أيديهم، واستسلموا للواقع، وبذلك طويت محنة من أشد المحن التي واجهت المسلمين[1].

* * *

وكانت هناك قلة رفضت عبادة الأصنام التي كانت سائدة في بلاد العرب. ومن هؤلاء **ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وعثمان بن الحويرث، وعبد الله بن جحش**.

وأعلن **زيد بن عمرو** قومه بأنه ليس على دينهم، فاعتزل الأوثان والميتة والدم

(١) انظر طبقات ابن سعد ١ / ٢٩١-٢٩٤ . والسيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٥٠-٣٥٤ . وإمتاع الأسماع للمقريزي ٢٥ .

والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة.. وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: **يا معشر قريش: والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكنى لا أعلمه. ثم يسجد على راحلته**(١).

وانعكست هذه الحنيفية على خطب قليل من الخطباء وشعر قلة من الشعراء كان أشهرهم **أمية بن أبي الصلت**(٢) وكان النبي ﷺ معجبًا بشعره، فقال فيه: إنْ كادَ ليُسْلم، وفي رواية أخرى: قد كاد يسلم في شعره، وفي ثالثة: آمن لسانه وكفر قلبه(٣) ويروى أنه أخذ يستنشد **الشريد بن سويد الثقفي** من شعر أمية بن أبي الصلت حتى أنشده مائة بيت(٤).

إنها قبسات من الفضائل في ظلمات من الرذائل بعضها فوق بعض: فمجتمع الخوف والدم والرعب لم يخل من الشجاعة والشهامة والنجدة وبعض آداب الفروسية حتى عند بعض **صعاليك العرب**.

ومجتمع الجفاف والقحط لم يخل من الكرم والاعتزاز بالضيف.

ومجتمع الأوثان والميسر والأزلام لم يخل من **ضفاء** وحدوا الله واجتنبوا هذه الكبائر.

لقد كان مجتمعا من المتناقضات المتضاربة، والتناقض كان بينا غير خفي: بين كثرة تسير في طريق الظلام، وقلة عرفت الحد الأدنى من الفضائل الإنسانية. **ولكن كثيراً من الفضلاء لم يكونوا أسوياء على طول الخط، فهو التناقض أو الانفصامية في قائمة القيم الواحدة في الشخصية الواحدة** قبل أن يسرى نور الإسلام إلى هذه النفوس فيغسل قلوبها، ويستأصل من أعماقها جذور الشرك: **فعبد الله بن جدعان** الذي دخل التاريخ

---

(١) محمد الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١/ ٦٠-٦١ وانظر أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ١٦٨/٤.

(٢) كان أمية بن أبي الصلت -كما يقول ابن سلام- كثير العجائب؛ يذكر في شعره خلق السموات والأرض، ويذكر الملائكة، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء، وكان قد شام أهل الكتاب (أى اقترب منهم). (طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٦٣).

وكان يخبر أن نبيا يبعث قد أظل زمانه، ويؤمل أن يكون هو ذلك النبى. وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر، وشك في الأوثان. وكان يقول: كل دين يوم القيامة عند الله - إلا دين الحنيفية - زور.

[راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٤٦٦. والأغاني ٤/ ١٣٣٩] ومن أروع ما نظم مطولته الدالية التي مطلعها:

لك الحمد والنعماء والملك ربنا ... فلا شيء أعلى منك مجداً وأمجد

[شرح ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٤-٣٧].

(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/ ٤٦٦.

(٤) انظر الحديث بتمامه في صحيح مسلم. وهو الحديث الأول من كتاب الشعر ٥/ ١١٠.

بعقد **حلف الفضول في بيته**، وهو حلف النجدة ومناصرة المظلوم المضعوف.. هذا الرجل الشهم الكريم القوي الشجاع استحل لنفسه أن يكون نخاسًا يتاجر في أحط تجارة وهي الأعراض: فكانت له ست جوار يزنين ويبيع أولادهن[١].

وهذه التناقضية تكفي مسوغًا لعدم صلاحية هذا النظام للبقاء – إن صح تسميته بالنظام – وعدم صلاحيته للتطور وخلْق معايشة طيبة بين أفراد المجتمع. كما أن «هذه النظم التي سادت في الجاهلية لم يتعارف عليها كافة أفراد المجتمع الجاهلي، ولم يكونوا في تطبيقها واحترامها متقاربين، بل هم متفاوتون لأنه ليست هناك سلطة تلزمهم بتطبيقها، وتفرض عليهم احترامها والخضوع لها»[٢].

وقد ثبت علميًا أن سعادة الإنسان وقدرته على إدراك كنه نفسه لن يتأتيا بغير تضحية النفس في سبيل الغير، وتعويد المرء نفسه الخضوع لنظم خاصة؛ فالإنسان بطبعه أناني ينقاد وراء دوافعه المباشرة. وقد أثبتت اختبارات الصفات الشخصية والتجارب الطبية لعلماء النفس أن الاتجاه في هذا الطريق يؤدي إلى انكماش الشخصية، واضطراب العواطف والعصاب والتخبط الفكري وسوء النظام، وأنه **لا غنى للمرء عن الدين.. ولن تجد غير الدين كأساس منطقي للحياة العادية الهانئة**[٣].

فأمام هذا الركام الهائل من الفساد والهبوط والضياع كان لابد من نظام متكامل يضع الإنسان في مكانه الصحيح، ويعيد إليه كيانه وكرامته حتى يعيش في الإسلام، ويعايش في تعاون ومحبة، ويتوجه إلى الحق عن رضا واقتناع، ويؤدى رسالته فى الحياة بحماسة وإخلاص وضمير. وهذا ما نراه في الفصل الآتي.

---

(١) جابر قميحة: المدخل إلى القيم الإسلامية ٢٥-٢٦. وارجع إلى كتاب د. أحمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي ٣٩٨-٤٠٢ ففيه تفصيل عن احتراف البغاء في الجاهلية وصوره وأهدافه.

(٢) د. موسى العبيدان: مسيرة الدعوة الإسلامية ٥٦.

(٣) هنري لنك: العودة إلى الإيمان ٤٧.

الفصل الثاني

الإسلام وتكريم الإنسان

إن النظام الذي يقوم المجتمع، ويوجهه الوجهة الصحيحة لابد أن يكون له ميزان فارق بين الخير والشر «فالخير والشر لا يمكن ترك تحديدهما للناس اعتباطًا، لأن ما يتوصل إليه الإنسان الواحد أو الجماعة في هذا الصدد لا يمكن أن تكون له الصحة المطلقة أبداً؛ فالتفكير البشري يتأثر بزمن المفكر ومحيطه، فإذا اعتمدنا عليه تتعدد مفاهيم الخير والشر وتتعارض، ومن تعارضها يكون اضطراب الحياة وقلق الناس. والحضارة لا تستقر وتزدهر في أجواء الاضطراب والقلق، بل لابدّ لها من دستور ثابت الأصول، مرن التطبيق، يشمل الحياة جميعًا، ويرسم لها مفاهيم الخير والشر بشكل مستقر مستوعب ملب للحاجات البشرية العامة تلبية تسمو عن الأوهام العابرة، والأمزجة الطارئة، والشذوذات الشرود.

إن هذا الدستور - ويسمى في التعبير القرآني دينا - هو ما جاء به الإسلام «إن الدين عند الله الإسلام»(١) فهو المنهج الذى ارتضاه الله -عز وجل- للناس كافة، وأرسل رسوله محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً لكي يخرج الناس من منهج منحرف ناقص إلى منهج مستقيم متكامل يقوّم الأفراد والجماعات، وينظم سلوكهم وعلاقتهم، ويحل العدل والمساواة محل الظلم والفرقة(٢).

وتحقق الكمال الفعلي للخلق لا يكون إلا باتباع المخلوقات هدى خالقها امتثالاً لأمره، وإذعانا وطاعة له، والطاعة هي إسلام الزمام للغير بقناعة ورضا، والإسلام بالتالي هو تكييف الإنسان سلوكه مع نواميس الحياة كما شرعها الله، وبعث بها رسله(٣).

وقد حازت الشريعة الإسلامية مزية مزدوجة لم تكن لسواها من الشرائع وهي البقاء والارتقاء معا؛ فهي ثابتة في نصوصها وأصولها ولكن بقدرة على التفريع والتنويع، وبمرونة متكيفة مع سير الزمان تلبي التطلعات السوية لكل بني الإنسان(٤).

وهذه التلبية الدائمة تقطع بخلود هذا الدين وعالميته، فقد كان الإنسان - بوصفه إنسانًا - هو محور التشريع والعطاء والإنعام حتى تتهيأ وتتوافر له الحياة الطيبة السوية بجانبيها المادي والمعنوي حتى يؤدي رسالته في الحياة بوجهها الصالح المنشود.

وقد تعددت مظاهر تكريم الله للإنسان. وأهم هذه المظاهر:

١- الاستخلاف في الأرض.

٢- توفير الضرورات المادية لإشباع الحاجات الحيوية.

---

(١) عمر بهاء الدين الأميري: الإسلام في المعترك الحضارى ٨.

(٢) العبيدان: مرجع سبق ٥٦.

(٣) الأميرى: الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة ٣٣.

(٤) السابق ٢٥.

٣- نعمة العقل والقيم الروحية والنفسية.

وكل أولئك يحتاج إلى تفصيل:

أولاً: الاستخلاف في الأرض:

آدم -عليه السلام- هو أبو البشر، وقد قص الله سبحانه وتعالى قصة خلقه في عدد من الآيات المكية والمدنية، فمن الآيات المكية:

- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)﴾(١).

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١)﴾(٢).

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦)﴾(٣).

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا(٦١)﴾(٤).

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)﴾(٥).

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(٦).

* * *

ونلاحظ على هذه الآيات المكية ما يأتي(٧):

١- أن أول آية تحدثت عن خلق آدم ذكرت مادة الخلق وهي الطين، ثم جعل هذا الخلق في صورة سوية لا شذوذ فيها، ثم النفخ فيه من روح الله.

٢- عبرت الآيات عن المخلوق «بآدم» وأحيانًا «بشر» دون تسمية. وفي آية واحدة عبرت

---

(١) سورة: ص: [٧١-٧٢].
(٢) الأعراف: [١١].
(٣) سورة طه: [١١٦].
(٤) سورة الإسراء: [٦١].
(٥) سورة الحجر: [٢٦-٣١].
(٦) سورة الكهف: [٥٠].
(٧) ننبه إلى أننا رتبنا هذه الآيات على أساس نزولها.

عنه «**بالإنسان**».

٣- علل إبليس مخالفته أمر ربه بالسجود لآدم ناظرًا إلى مادة الخلق وهي (**الطين**) لا إلى صفات المخلوق السوي الذي نفخ الله فيه من روحه، مدعيًا أن عنصر النار الذي خلق منه إبليس خير من عنصر الطين الذي خلق منه آدم ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴿٧٦﴾﴾(١) يقول ابن كثير: ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أشرف من آدم، فامتنع من السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود، والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار، ثم هو فاسد في نفسه؛ فإن الطين أنفع وخير من النار، لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق(٢) كما أن الطين هو أصل النار، ولولاه ما كانت، ففيه تنبت مادة النار من أعشاب وشجر، والله -سبحانه وتعالى هو ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ** ﴿٨٠﴾﴾(٣).

هذا وقد اعترف إبليس صراحة بأن أمر الله لملائكته بالسجود لآدم **فيه تكريم وتفضيل** له ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا** ﴿٦٢﴾﴾(٤).

* * *

ثم جاءت آيات **سورة البقرة** وهي مدنية بلا خلاف:

- ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٣٠﴾ **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴿٣١﴾ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴿٣٢﴾ **قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴿٣٣﴾ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴿٣٤﴾﴾(٥).

---

(١) سورة ص: [٧٦].
(٢) ابن كثير: قصص الأنبياء ١٣.
(٣) سورة يس: [٨٠]. ونلاحظ أن هذا «المنهج الإبليسي» في الجدل بالارتكاز على الماديات دون اعتبار للقيم والمعنويات هو منهج أعداء الدين والفكر السوي من الكفار والمنافقين والملاحدة وغلاة العالمانيين.
(٤) سورة الإسراء: [٦٢].
(٥) سورة البقرة: [٣٠-٣٤].

وبهذه الآيات يتم عرض مظاهر تكريم آدم -عليه السلام- **وهي تتمثل في أربع تشريفات**: خلقه الله بيده الكريمة، ونفخه من روحه، وأمره الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء(١).

وآدم هو أبو البشر الذي أعلن الله -سبحانه وتعالى- ملائكته أنه خليفته في الأرض، **وليس المراد به عينًا** إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾** فإنهم أرادوا من هذا الجنس من يفعل ذلك(٢) فقصد قومًا يخلف بعضهم بعضًا قرنا بعد قرن وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾**(٣) وقال **﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾**(٤) وقال الزمخشري: أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه، كما يستغنى **بذكر أبي القبيلة في قولك: مضروهاشم**(٥).

فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وتعلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين والتحليل والتركيب والتحوير والتبديل، وكشف ما في **هذه الأرض** من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسْخير هذا كله -بإذن الله- في المهمة الضخمة التى وكلها الله إليه(٦).

وإذن فهي منزلة عظيمة منزلة هذا الإنسان في نظام هذا الوجود على هذه الأرض الفسيحة، وهو التكريم الذى شاءه له خالقه الكريم(٧).

وكان المرجع الأكبر لهذا التكريم الرباني أنه جل وعلا: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾**. وتختلف الأقوال في معنى الأسماء، فمن هذه المعاني للأسماء: العبارات، والمسميات، والذوات.

كما اختلف أهل التأويل في مفهوم هذه الأسماء: فقيل علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها، وقيل علمه أسماء الأجناس وعرفه منافعها، وقيل علمه أسماء الملائكة وذريته(٨).

ويقول صاحب المنار: علم آدم الأسماء كلها أى **أودع في نفسه علم جميع الأشياء** من غير تحديد ولا تعيين، فالمراد بالأسماء المسميات، عبّر عن المدلول بالدليل؛ لشدة

---

(١) ابن كثير: قصص الأنبياء ١٣٠.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١١٢.
(٣) سورة الأنعام: [١٦٥].
(٤) سورة الأعراف: [٧٤].
(٥) الكشاف ١/ ٢٧١.
(٦) في ظلال القرآن ١/ ٥٦.
(٧) السابق ١/ ٥٦.
(٨) تفسير القرطبي ١/ ٢٤١.

الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له، وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر، والعلم الحقيقي إنما هو إدراك المعلومات أنفسها، والألفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح فهي تتغير وتختلف، والمعنى لا تغيير فيه ولا اختلاف(١).

وأيا كان مفهوم «الأسماء» فإن آيات البقرة تقودنا إلى عدد من الحقائق تتلخص فيما يأتي:

١- **أن هذا العلم كان مصدره الله سبحانه وتعالى**، ولم يحصله آدم اكتسابًا، وهذا يرفع من قيمة «**التكريم**» فالعلم -في ذاته- يكسب صاحبه شرفًا، ويزداد شرف العلم رفعة وسموًا «**بقدسية المصدر**» وعظمته، وهو الله سبحانه وتعالى.

٢- **أنه كان علمًا شاملاً واعيًا بلا حدود**؛ فقد علمه الله الأسماء كلها لا بعضها.

٣- **لم يكن سؤال الملائكة اعتراضًا على فعل الله سبحانه، ولا شكا في اشتماله على الحكمة والمصلحة إجمالاً، ولا طعنا في آدم** عليه السلام وفي ذريته على درجة الغيبة، فإن منصبهم أجل من أن يظن بهم أمثال ذلك. وإنما سؤال الملائكة هو «**سؤال استعلام واستكشاف** عن الحكمة في هذا الاستخلاف، فيقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك، ونقدس لك.. ولا يصدر منا شيء من ذلك. وهلا وقع الاقتصار علينا؟(٢).

فالملائكة كانت تستشرف إلى هذه المرتبة الرفيعة حين أخبرهم سبحانه أنه جاعل في الأرض خليفة، ولكن آدم وبنيه ذهبوا بشرف هذه الكرامة لما ميزهم الله به من المواهب والأسرار التي تؤهلهم لذلك(٣).

وكان جواب الله تعالى لهم ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ أى أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف -على المفاسد التي ذكرتموها- ما لا تعلمون أنتم: فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعبّاد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم(٤).

٤- **وقد وفق هذا المستخلف، وأظهر أمام الملائكة استيعابه لما علمه الله**، وعجز

(١) تفسير المنار ١/٢٦٢.
(٢) ابن كثير ١/١١٣.
(٣) البهي الخولي: آدم عليه السلام ١١.
(٤) ابن كثير: الصفحة نفسها.

الملائكة عن مجاراة آدم فيما نجح فيه «فعلموا أن في فطرة هذا الخليفة واستعداده علم ما لم يعلموا، وتبين لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة في الأرض، وأن كل ما يتوقع من الفساد وسفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته ومقامه، وناهيك بمقام العلم وفائدته، وسر العالم وحكمته»[١].

٥- **ومن مظاهر تكريم هذا الخليفة أمر الله ملائكته بالسجود له** «وهذا يدل على أنه كان أفضل منهم»[٢]. وذهب بعضهم إلى أن الأمر بالسجود **وقع قبل التعليم**، ولكن «ظاهر السياق أنه وقع بعد التعليم، وتعقبه الأمر بالسجود، وتعقبه إسكانه الجنة، ثم إخراجه منها وإسكانه الأرض[٣].

والسجود لآدم كان بهيئة السجود المعروف لنا في الصلاة بوضع الجبهة على الأرض، لابنية العبادة، ولكن بنية الإكبار والتبجيل، كما فعل إخوة يوسف. قال تعالى: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا**﴾[٤] ويقال إن السجود هنا بمعنى التذلل والانقياد، **وعلى المعنيين يكون السجود دليل تكرمة وتبجيل وإجلال لآدم كما ذكرنا**[٥].

٦- وهذا الاستخلاف الذي كرم الله به الإنسان يرى فيه القرطبي **أنه أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع** لتجتمع به الكلمة تنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة، ولا بين الأئمة..[٦].

٧- وهناك قيمة إنسانية أخرى تشدنا إليها الآيات ويوحى به الحوار بين الله -سبحانه وتعالى- وآدم والملائكة وإبليس: فالله -سبحانه وتعالى- كان غنياً عن كل ذلك، قديراً على استخلاف آدم وتكريمه دونما حاجة إلى أن يخاطب في ذلك الملائكة وإبليس، وما تمخض عن ذلك من سؤال وجواب وأمر ونهى، وطاعة وعصيان، ووعد ووعيد، وإنعام وعقاب. وفي كل أولئك **إيحاء قوي بقيمة الحوار والشورى في تسيير مصالح العباد**، وما ينجم عن ذلك من الاهتداء إلى الصواب بعد تقليب الأمور، ومحاولة استبطانها ومعرفة أبعادها، وما تقود إليه من نتائج، وتحققه من أهداف. وفي ذلك دروس وعبر لاحقة بالمظهر الأكبر من تكريم الإنسان بذلك الاستخلاف الرباني العظيم.

٨- بهذا الاستخلاف يكون الإنسان -كما يقول صاحب الظلال-[٧] سيد هذه

---

(١) المنار ١/٢٥٧.
(٢) القرطبي ١/٢٤٩.
(٣) فتح القدير ١/٨٦.
(٤) سورة يوسف: [١٠٠].
(٥) جاء في تفسير القرطبي: ومعنى «اسجدوا لآدم» اسجدوا لى مستقبلين وجه آدم ١٠٠/٢٤٩. وهو -في رأينا تأويل بعيد لا وجه له، ولا ينتج الدلالة التى يقتضيها السياق.
(٦) القرطبي ١/٢٢٦.
(٧) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/٦٠.

الأرض، ومن أجله خلق الله كل شيء فيها، فهو إذن **أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعاً**، ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء قيمة مادية أو شيء مادي، لا يجوز أن يعتدى على أي مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة، ولا أن تهدر أية قيمة من قيمه لقاء تحقيق أي كسب مادي.. فهذه الماديات كلها مخلوقة - أو مصنوعة - من أجله.. من أجل تحقيق إنسانيته، من أجل تقدير وجوده الإنساني، فلا يجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانية، أو نقص مقوم من مقومات كرامته.

* * *

ثانياً: توفير الضرورات المادية لإشباع الحاجات الضرورية:

رأينا كيف خلق الله الإنسان، وفضله على سائر مخلوقاته باستخلافه في الأرض، وكيف أقر الملائكة بهذا التفضيل عملياً بالسجود لآدم، وكيف أقر إبليس -على تبجحه وعصيانه- بتفضيل الله لآدم وتكريمه ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا** (٦٢)﴾(١).

وما كان الإنسان ليستطيع أن يعيش في الأرض، ويؤدي دوره ورسالته المنوطة به في الحياة، ويعمر أرجاءها، ويستثمر ما فيها بدون أن يهيىء الله -سبحانه وتعالى- له ما في الأرض من رزق وطيبات، ووفر له المصادر التي تمده بالضرورات المادية التي تشبع حاجاته الحيوية، وهذا هو التكريم الذي جاء في قوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** (٧٠)﴾(٢).

والإكرام والتكريم أن يوصل إلى الإنسان إكرام -أى نفع- لا يلحقه فيه غضاضة، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئًا كريمًا أى شريفًا(٣) فالإكرام أو التكريم -حتى فى صورته المادية البحت- **لابد أن يكون موسوما ومصحوباً بعنصر الشرفية والسمو**، فلا تسمى «الصلة المادية» أو العطاء المادى - مهما كانت قيمته - تكريمًا إذا كان مصحوبًا بمن أو أذى أو إذلال.

وآية الإسراء السابقة جمعت عنصري التكريم - مادية ومعنوية - وإن جاء المعنوى

(١) سورة الإسراء: [٦٢].
(٢) سورة الإسراء: [٧٠].
(٣) الراغب الاصفهاني: المفردات في غريب القرآن ٤٣١.

إجمالاً، وهو مكانة التفضيل على كثير من الخلق. ولكننا نقف الآن أمام «**التكريم المادى**» الذي وفره الله -سبحانه وتعالى - للإنسان من أجل الحياة وتعمير الأرض وحفظ النوع، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم **بالنعم والرزق والفضل وغيرها**. ويطول بنا المقام لو رحنا نستعرض كل ما هيأه الله للإنسان من هذه النعم أو هذه الأرزاق ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴿١٨﴾ ﴾(١)، ونكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى بعض هذه النعم:

فالماء سر الحياة والأحياء، وفيه قال الله - سبحانه وتعالى:

- ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴿٣٠﴾ ﴾(٢).
- ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ** ﴿١٨﴾ ﴾(٣).
- ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا** ﴿١٤﴾ ﴾(٤).
- ﴿ **وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ** ﴿٣٢﴾ ﴾(٥).

* * *

وعن طعام الإنسان تتعدد الآيات ومنها:

- ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ** ﴿١٠﴾ **يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴿١١﴾ ﴾(٦).
- ﴿ **وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا** ﴿١٤﴾ ﴾(٧).
- ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴿٧٩﴾ ﴾(٨).
- ﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ** ﴿٦٦﴾ ﴾(٩).

وهيأ الله للإنسان الانتفاع بالأنعام في اتخاذ الملابس والأكسية والبسط والبيوت، وذلك من جلودها وأوبارها وأصوافها وأشعارها:

---

(١) سورة النحل: [١٨].
(٢) سورة الأنبياء: [٣٠].
(٣) سورة المؤمنون: [١٨].
(٤) سورة النبأ: [١٤].
(٥) سورة إبراهيم: [٣٢].
(٦) سورة النحل: [١٠ - ١١]. تسيمون: ترعون إبلكم.
(٧) سورة النحل: [١٤].
(٨) سورة غافر: [٧٩].
(٩) سورة النحل: [٦٦].

- ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ ﴾(١).

- ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾(٢).

* * *

وعن نعمة الأنعام وسيلة للتنقل والسفر يقول تعالى:

- ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾(٣).

* * *

وعن البحر وسيلة للتنقل يقول تعالى:

- ﴿ ... وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ ﴾(٤).

- ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾(٥).

- ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾(٦).

* * *

إن كل مظهر من مظاهر الطبيعة يمثل نعمة من نعم الله أكرم بها الإنسان، ودلل بها على فضله وقدرته كما نرى في الآية الجامعة التالية:

- ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾(٧).

وكثيرا ما تعبر الآيات بفعل «التسخير» عن تهيئة انتفاع الإنسان بهذه النعم:

---

(١) سورة النحل: [٥].
(٢) سورة النحل: [٨٠].
(٣) سورة النحل: [٧ - ٨].
(٤) سورة إبراهيم: [٣٢].
(٥) سورة الإسراء: [٦٦].
(٦) سورة الجاثية: [١٢].
(٧) سورة البقرة: [١٦٤].

- **وسخر لكم الفلك - وسخر لكم الأنهار - وسخر لكم الشمس والقمر دائبين - وهو الذي سخر البحر - سخر لكم ما في الأرض - سخر لكم ما في السموات وما في الأرض....**

والتسخير - كما يقول الراغب الأصفهاني - سياقة إلى الغرض المختص قهرا.... **والمسخَّر** هو المقيض للفعل[1] والسخرة ما تسخَّرْتَ من دابة أو خادم بلا أجر ولا ثمن. ويقال سخرته أي قهرته وذللته. وسخره تسخيرا كلفه عملا بلا أجرة... **وتسخير ما في السموات** تسخير الشمس والقمر والنجوم للآدميين، وهو الانتفاع بها في بلوغ منابتهم، والاقتداء بها في مسالكهم، **وتسخير ما في الأرض** تسخير بحارها وأنهارها ودوابها وجميع منافعها[2].

والتعبير بالتسخير عن تهيىء هذه المظاهر لانتفاع الإنسان يقطع بقدرة الله المطلقة بالتحكم في مخلوقاته تبعا لمشيئته وتعبيدها وتذليلها للإنسان حتى يؤدي رسالته على وجه الأرض، «وفضل الله على هذا الإنسان، ونفخته فيه من روحه، وتكريمه له على كثير من خلقه.. قد اقتضى أن يكون لهذا المخلوق وزن في نظام الكون وحساب، وأن يهيئ له القدرة على استخدام الكثير من طاقات هذا الكون وقواه، ومن ذخائره وخيراته[3].

ولكن الانتفاع بهذه النعم وتسخيرها للإنسان ليس غاية أو هدفا في ذاته، فلا يسوغ في العقل - كما يقول البهي الخولي - ولا في حكمة الله أن يكون الإنسان ذو المواهب والملكات العظيمة قد خلق - لا لشيء إلا لينتفع بالطبيعة على نحو من الأنحاء... فلابد من الاستشراف إلى الآفاق التى تبدو فيه الأمور للفكر مقدورة بميزان الحكمة الإلهية، لنتبين حكمة وجود الإنسان مقدورة بقدر مواهبه ذات الإلهامات العالية[4].

وهذه الحقيقة تقودنا إلى القول بأن **الاستخلاف في ذاته** - بصرف النظر عن مسوغاته وتوابعه - يوحي بل يقطع بأن الإنسان مكلف بأداء رسالة والنهوض بدور إيجابي ناشط في هذا الوجود «وأن افتراضه مسيبًا من كل تكليف... هو افتراض لسقوط منزلته، واعتباره هملا غير مسئول عن قيمة ما عالية، فإذا كان هذا الدور هو خلافة عن الله تعالى **فهو إعلان لما أريد للإنسان من كرامة عظمى**، ذلك كله إلى أن الأكل والشرب

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٢٣٣.
(٢) لسان العرب ٣/ ١٩٦٣.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٩٢.
(٤) آدم عليه السلام ١٣٢.

ليس خلافة عن الله بأي وجه أو على أي حال(١).

* * *

وما ذكرناه يمثل أهم ضرورة مادية حيوية، **وهي إشباع حاجات الفم أو البطن** من طعام وشراب، وما يتصل بحماية الإنسان من مسكن وكساء.

وكان من رعاية الله وتكريمه كذلك للإنسان إشباع حاجة مادية أخرى تتمثل في **الغريزة الجنسية أو حاجة الفرج**، وذلك ضروري لبقاء النوع، فكان خلق حواء من ضلع آدم، ثم صارت له زوجة، وكان منها نسل، واستمرت مسيرة الإنجاب من البشر «**من كل زوجين**» وبذلك كان عمار الكون:

- ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً** ﴿١﴾﴾(٢).
- ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ** ﴿٧٢﴾﴾(٣).
- ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴿١٣﴾﴾(٤).

* * *

وخلق الزوجة من بدن الزوج وانفصالها منه أمر تقرره وتجري به سنن الطبيعة؛ فإن تكاثر بعض الأحياء بطريق انقسام بعضها من بعض، ثم تحولها إلى التكاثر بطريق التوالد أمر مقرر علميا. فإذا قررت لنا نصوص القرآن الكريم أن أنثى البشر الأول (آدم) خلقت منه هو نفسه بطريق الانقسام والانفصال، ثم تحولا معًا إلى سنة التكاثر بطريق التوالد المعروفة فهو تقرير يقرره العلم، وتذهب إليه بعض مقرراته المؤكدة الثابتة(٥).

ونظام الثنائية أو «**نظام الزوج**» نظام أزلي يلتئم به شمل كل ما نرى ويصلح عليه وجوده، ويخرج به ثمره. والله – سبحانه وتعالى – يقول ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**

---

(١) السابق الصفحة نفسها.
(٢) سورة النساء: [١].
(٣) سورة النحل: [٧٢].
(٤) سورة الحجرات: [١٣].
(٥) الخولي: مرجع سبق ١٦٢. وانظر كذلك عبد الرحمن المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم ١٧ – ٢٠.

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾(١)، وهذه **الكلية** تنسحب على الأشياء جميعًا ما نعلم وما لا نعلم من حي وجامد، وصامت وناطق ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ** ﴿٣٦﴾﴾(٢). فنظام الزوج سنة كونية دقيقة واسعة المدى، وفطرة أزلية لا يلتئم شمل الشيء إلا إذا اتخذت مكانها الطبيعي في وجوده، فهناك نزوع فطري يتجاذب به أزواج النوع الواحد بعضها إلى بعض، فلا يكون لهما سعادة واستقرار وإنتاج إلا بالتقائهما(٣).

فشهوة الجنس غريزة خلقها الله في طبيعة الأحياء، وبالنظر إلى الإنسان نجد أن إشباع هذه الغريزة التي تمثل **«حاجة الفرج»**، هو سر بقاء النوع والتكاثر وتعمير الكون، وهذا الإشباع لم يكن بمعدل واحد أو درجات متقاربة على مدار التاريخ تبعا للقيم السائدة في هذه المجتمعات والمذاهب التي كان بعضها يدعو إلى الحرمان المطلق مثل المانوية، وبعضها يدعو إلى الإباحية والشيوعية الجنسية والمالية مثل المزدكية. إلا أن التواصل الجنسي ظل له مكانه في كل المجتمعات بصرف النظر عن أعرافها ونظمها وحظها من التخلف أو التقدم.

ولا إسراف إذا اعتبرنا الجنس مظهرا مهما من مظاهر تكريم الله للإنسان؛ فهو كالطعام والشراب يبقى به النوع، وتستمر به مسيرة «الخلافة» في الأرض، تلك الخلافة التي خص الله بها بني الإنسان، وكانت الدليل الأكبر على تكريمهم ابتداء من أبيهم آدم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن استقراء التاريخ يجزم بأن الجنس يحمل مشكلة ومشكلته تتمثل – كما يقول محمد قطب – في أنه ضرورة وضرر في آن: ضرورة لأن الحياة لا يمكن أن تستمر إلا بالتزاوج الدائم الذى لا يقف في جيل من الأجيال، فلابد إذن أن يكون في نفس كل فرد في كل جيل ما يحمله على طلب الجنس الآخر ليتم التزاوج، ويخرج النسل الجديد الذي يعمر وجه الأرض، ولابدّ أن يكون هذا الدافع من العنف والإلحاح بحيث لا يتمكن الفرد من الإفلات منه، ولو حدثته نفسه بالإفلات.

وضرر لأن الاستجابة الكاملة لهذا الدافع الملح تؤدي إلى هبوط الإنسان إلى مرتبة الحيوان وتفسد الحياة كلها إذ تنتهي بها إلى أن تكون ضرورة جسد ونشوة غريزة لا ترتفع إلى فكرة عليا، ولا شعور إنساني، ولا فن رفيع، وبذلك يتحطم المجتمع، وتنهار

(١) سورة الذاريات: [٤٩]. (٢) سورة يس: [٣٦].
(٣) انظر: الخولي: مرجع سبق ١٦٢ – ١٦٣.

الحضارة، وينتهي كل شيء إلى البوار(١).

وهنا ندرك أهمية الأديان – خصوصًا الإسلام – في الحفاظ على الجنس ضرورة بلا ضرر ولا ضرار. والعلم في عصرنا يثبت كل يوم جديدا من الأمراض والآفات الماحقة التي تسببها فوضوية الجنس، وانطلاق الإنسان وراء شهوته البهيمية بلا ضوابط ولا شرعية.

* * *

وكانت نظرة الإسلام للجنس نظرة واقعية على أساس أنه غريزة مركوزة في الكائن الحي، وهي سر بقاء النوع، وبدون شهوة الجنس لا يمكن أن تستمر الحياة «وإنما يهاجم القرآن الكريم شهوة الجنس – كما يهاجم كل شهوة أخرى مهما تكن أصالتها في أعماق الغريزة والفطرة – متى تجاوزت الاعتدال والقصد، أو جنحت إلى الشذوذ والانحراف»(٢).

وكانت نظرة الإسلام إلى الجنس – زيادة على واقعيتها – نظرة «عادلة» اعتمادا على قاعدته الخالدة **في التزام الوسطية** وهي «تبدو في **الاعتدال والتوازن** بين مطالب الدنيا والنظرة إليها ومطالب الآخرة والعمل لها، والأخذ بالأسباب المؤدية إلى ذلك دون إفراط أو تفريط، ودون إسراف أو تقتير ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** (٧٧)﴾(٣).

ومن مظاهر هذه الوسطية رفض الإسلام للرهبانية، قال تعالى في سياق الحديث عن عيسى – عليه السلام ﴿**وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** (٢٧)﴾(٤).

فالله – سبحانه وتعالى – غرس في قلوب الذين اتبعوا عيسى على منهاجه وشريعته رأفة ورحمة، أما الرهبانية فقد أحدثوها يبغون بها رضاء الله «**فما رعوها حق رعايتها**» بل بدلوا وخالفوا دين الله الذى بعث به عيسى. وقال آخرون: بل هم قوم جاءوا من بعد الذين ابتدعوها فلم يرعوها حق رعايتها، لأنهم كانوا كفارا، ولكنهم قالوا: نفعل كالذي كانوا يفعلون فهم الذين وصف الله بأنهم لم يرعوها حق رعايتها(٥).

(١) محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام ٢٠٦ – ٢٠٧.

(٢) أحمد غنيم: المرأة منذ النشأة بين التجريم والتكريم ١٥١.

(٣) سورة القصص: [٧٧]. د. عبد الله بن عبد المحسن التركي: الأمة الوسط ١٣.

(٤) سورة الحديد: [٢٧].

(٥) تفسير الطبرى ١٣/ ٣٠٩.

وهذا ذم لهؤلاء من وجهين:

أحدهما **الابتداع في دين الله** ما لم يأمر به الله.

والثاني: **في عدم قيامهم بما التزموه** بما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل[(١)].

وقد برأ رسول الله ﷺ الإسلام من هذه الرهبانية بقوله لعثمان بن مظعون الذى كان قد ترك النساء «**يا عثمان، إني لم أومر بالرهبانية، أرغبت عن سنتي**»؟[(٢)].

وأثنى الله – سبحانه وتعالى – على المتعففين الطاهرين، وجعل من صفات المؤمنين حفظ الفرج بصونه عن الحرام[(٣)]. ووجه الأمر بذلك إلى المؤمنين والمؤمنات ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ... (٣١)**﴾[(٤)].

وحفظ الفرج يعني تجنب الزنا وسلوك المشروع من الاتصال الجنسي. وقد حرص الإسلام على تحقيق حفظ الفرج بإجراءات وقائية تدخل في باب سد الذرائع أى منع ما كان وسيلة إلى الفساد، حتى لو كانت هذه الوسيلة حلالا في ذاتها[(٥)].

لذلك حرم الإسلام «**المثيرات**» التي تهيج الشهوة، وقد تقود إلى الزنا، فحرم النظرة الشهوانية من الجنسين فعن حذيفة – رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة؛ فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانا يجد حلاوته في قلبه**»[(٦)] كما حرم الخلوة بالأجنبية والتبرج وإبداء الزينة إلا لمن نص عليهم الشرع، كما نرى في قوله تعالى ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**

---

(١) ابن كثير ٧/ ٣٦٤.

(٢) الدارمي: كتاب النكاح باب النهي عن التبتل حديث ٢٠٩٢ عن سعد بن أبى وقاص ٢/ ٥٧٠.

(٣) راجع الآيات ٥، ٢٩، ٣٥ من سور المؤمنون والمعارج والأحزاب بالترتيب.

(٤) سورة النور: [٣٠ – ٣١].

(٥) انظر محمد قلعه جي: معجم لغة الفقهاء ٢١٦. وانظر في تفصيل أنواع الذرائع وموقف الإسلام منها: على حسب الله: أصول التشريع الإسلامي وعبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة والحرية ٥٢.

ويقول ابن القيم: لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها كانت طرقها وأسبابها تابعة لها، معتبرة بها... فوسيلة المقصود تابعة للمقصود، وكلاهما مقصود، لكنه مقصود قصد الغايات، وهي مقصودة قصد الوسائل. فإذا حرم الرب تعالى شيئًا وله طرق ووسائل تفضي إليه فإنه يحرمها ويمنع منها تحقيقا لتحريمه، وتثبيتا له، ومنعا أن يقرب حماه. ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضا للتحريم وإغراء للنفوس به. وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء. [إعلام الموقعين ٢/ ١٠٣].

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب الرقاق ٤/ ٣٤٩ – حديث رقم ٧٨٧٥.

وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾(١).

والتفريط في الفرج يعني الزنى، وقد حرم الله الزنى تحريما قاطعا فقال ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾(٢). وهو نهي شديد حاسم يشعر الإنسان بشدته وحسمه من وضع الآية، وطريقة التعبير عن النهي والتحريم:

١ - فقد جاء هذا النهي في هذه الآية بين آيتين:

الأولى منهما تنهى عن جريمة بشعة كان بعض العرب في الجاهلية يرتكبونها وهي الوأد: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾(٣).

وتنهى الثانية عن قتل النفس ظلما وعدوانا ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) ﴾(٤).

ووضع الآية بين الآيتين السابقتين يوحي ببشاعة الزنى الذي هو في حقيقته **قتل للضمير والشرف، وعامل مهم للقضاء على المجتمعات**، وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: إن في الزنى قتلا من نواح شتى: إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها، يتبعه غالبا التخلص من آثاره بقتل الجنين... فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة أو حياة مهينة. وهو قتل للجماعة التي يفشو فيها فتضيع الأنساب، وتختلط الدماء، وتذهب الثقة في العرض والولد، وتتحلل الجماعة، وتتفكك روابطها فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين الجماعات.

---

(١) سورة النور: [٣١]، زينتهن: مواضع زينتهن من الجسد. ما ظهر منها: كالوجه والكفين في حالة الضرورة فقط. الخُمر: المقانع. بعولتهن: أزواجهن. جيوبهن: فتحات الثياب في الصدر وغيره. نساؤهن: المختصات بهن بالصحبة أو الخدمة. التابعين غير أولي الإربة: التابعين لأهل البيت يطعمونهم ويسكنونهن ممن لا حاجة لهم إلى النساء. الطفل: الأطفال الصغار قبل التمييز والبلوغ. لم يظهروا: لم يبلغوا حد الشهوة. ما يخفين من زينتهن: الخلاخل في الرجلين وما شابهها.

(٢) سورة الإسراء: [٣٢].

(٣) سورة الإسراء: [٣١].

(٤) سورة الإسراء: [٣٣].

وهو قتل للجماعة من جانب آخر؛ إذ إن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها، وتجعل الأسرة تبعة لا داعي إليها، والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة، ولا تصح فطرتها، ولا تسلم تربيتها إلا فيه[1].

والزنى يعد انتحارا معنويا للمرأة «فهي إذا باشرت الزنى وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم وكل خاطر مستقيم، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة، ولا يتم السكن والازدواج، ولذلك فإن المرأة إذا اشتهرت بالزنى تنفَّر عن مقارنتها أكثر الخلق»[2].

كما أن الزنى يعد كذلك انتحارا معنويا للرجل؛ فالزنى إذا انفتح بابه وشاع لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة، وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت، وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب[3].

* * *

٢ - التعبير عن تحريم الزنا والنهي عنه بقوله تعالى «ولا تقربوا الزنى»، وهو أبلغ مما لو قيل **«ولا تزنوا»**[4] فإذا قيل للإنسان: لا تقرب هذا، فهذا آكد من أن يقال له: لا تفعله. والنهي بهذا التعبير ليس نهيا عن الزني فحسب، ولكنه نهي كذلك «عن الزنى وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه»[5].

وبذلك يدخل في دائرة الحرام كل ما يثير الشهوة ويعطي احتمال الوقوع في الزنى كالنظر إلى الأجنبية، والاختلاط بين الجنسين والصور الخليعة، والاستماع للأصوات التي توقظ الحس الجنسي.. إلى آخر المستحدثات الشيطانية في وقتنا الحاضر[6].

٣ - وصف الزنى بأنه فاحشة. والفاحشة هي كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي. وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنى، ويسمى الزنى فاحشة، قال تعالى: **﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ﴾**[7]، قيل الفاحشة المبينة أن تزني فتخرج للحد[8].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٢٣.

(٢) الفخر الرازي ٥/ ٣٩٤.

(٣) السابق نفس الصفحة. علما بان البهائم لا تزاول الجنس إلا في موسم معين من السنة. أما الإنسان فكل أيام السنة له موسم.

(٤) القرطبي ٥/ ٣٨٦٩.

(٥) ابن كثير ٥/ ٤٦.

(٦) ومنها تبادل الرسائل والعناوين بين الجنسين عن طريق «الانترنت».

(٧) سورة الطلاق: [١].

(٨) لسان العرب ٥/ ٣٣٥٥.

ووصف الزنى بأنه ساء سبيلا أى أنه طريق سيء مستقذر لأنه يؤدي إلى نتائج مدمرة للفرد والمجتمع والقيم الإنسانية كما بينا سابقا.

* * *

وما ذكرناه آنفا من خطوات وقائية لا تحل مشكلة الجنس، ولكنها تصون المسلم، وتفتح أمامه الطريق إلى الحل الناجع الدائم وهو الزواج. **ولكن إذا كان المسلم عاجزا عن الوفاء بمتطلبات الزواج من نفقة ومسكن وغير ذلك فماذا يفعل؟.**

إن الإسلام يدعوه في هذه الحال إلى «**المقاومة الذاتية**» بمحاول كسر الشهوة، والتغلب على حدتها، والتصون والصبر والاستعفاف حتى يغنيه الله فيتزوج ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴿٣٣﴾﴾[1].

ونجد الجواب كذلك في حديث عبد الله بن مسعود، قال قال لنا رسول الله ﷺ «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»[2].

والحديث موجه للشباب بخاصة لأن قوة الجنس ودوافعه عندهم أقوى مما هى عليه عند الكهول والشيوخ. وهو يدعو الشباب إلى الزواج حفاظا على الخلق والعرض والشرف، ووقاية للنفس من الوقوع في الفاحشة، وذلك في حالة القدرة على القيام بأعباء الزواج، وفي حالة العجز يوجه الشباب إلى أنجع العبادات في هذه الحال وهي الصوم علاجا مؤقتا، ومسكنا كاسرا للشهوة إلى أن يستطيع الشاب **الباءة** فيتزوج.

وهذا ما يسمى في علم النفس باعلاء الغريزة أو السمّو بها **Sublimation**. وعملية الإعلاء - كما يقول علماء النفس - لا تنجح إلا إذا أعيد تنظيم الشخصية بأكملها على أساس جديد لتقوية جميع نواحيها وتحقيق وحدتها وتكاملها حيها، وتحقيق وحدتها وتكاملها بتأثير المثل الأخلاقية العليا. والتربية السديدة الصالحة هى التى تحقق إعلاء الغرائز، وتنقية الميول مما يشوبها من عوامل الأثرة والضعف، وذلك بتحقيق وحدة

---

(١) سورة النور: [٣٣].

(٢) أخرجه البخارى: كتاب النكاح (٦٧) باب (٣): من لم يستطع الباءة فليصم. فتح البارى ٩/ ١٤. ومسلم: كتاب النكاح. باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه. حديث ٤. مسلم بشرح النووي ٣/ ٥٤٨.
وسنن أبي داود: كتاب النكاح، باب التحريض على النكاح. حديث ٢٠٤٦ - ٢/ ٢٢٥.
والباءة: مؤن الزواج وتكاليفه. والوجاء: من وجأ التيس وجئا ووجاء إذا دق عروق خصيتيه بين حجرين من غير أن يخرجهما، وقيل أن ترضهما حتى تنفضحا فيكون شبيها بالخصاء. [لسان العرب ٦/ ٤٧٦٦].

الشخصية وتكاملها، وبتقوية الإرادة، وتوفير وسائل ضبط النفس[١].

* * *

والزواج هو الوسيلة المشروعة لكسر الشهوة، وبناء الأسرة، وتعمير الكون، وجعل هذا البناء قائما على مثل إنسانية عليا:

- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا (١٨٩)﴾[٢].

- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾[٣].

فتكوين الأسرة المسلمة مهمة جليلة سامية، ووسيلة ذلك الزواج، والزواج سكينة ومودة ورحمة، وعلى مثل هذه المشاعر يقوم المجتمع الطاهر القوي السليم؛ لذلك عمل النبي ﷺ على تيسير أموره، وتذليل طرقه، وكان هو قدوة في ذلك فقد زوج ابنته فاطمة – رضى الله عنها – من علي بن أبي طالب رضى الله عنه، وكان الصداق درع على الحطمية. فماذا تفعل فاطمة بالدرع، وأى قيمة مادية لها؟ لكن هذا دليل على أن الزواج ليس سلعة يشتريها القادرون بل هو حق مشروع يعان عليه المقترون[٤].

فلا عجب أن يدعو الإسلام إلى توجيه الرغبة الجنسية وجهتها السليمة كلما همت بالإنسان إلى غير ما أبيح وأتيح لها[٥].

وصورة ذلك أن يؤخذ الزوج بجمال امرأة أخرى، وصونا له من فتنة الزنى، أو كربة الكبت عليه أن يطفىء شهوته في زوجته. وفي ذلك يقول **رسول الله ﷺ «أيما رجل رأى امرأة تعجبه فليقم إلى أهله؛ فإن معها مثل الذى معها»**[٦].

بل إن رسول الله ﷺ ليرفع من قيمة هذا العمل المشروع فيقول: **«... وفي بُضْع أحدكم صدقة»** وذلك لأن الرجل إذا وضع شهوته في حرام ارتكب بذلك إثما، فكان من المنطقي ومن العدل أنه إذا وضع ماءه في حلال كان له بذلك أجر[٧].

---

(١) د. يوسف مراد: مبادئ علم النفس العام ١٥٣.

(٢) سورة الأعراف: [١٨٩].

(٣) سورة الروم: [٢١].

(٤) د. مصطفى عبد الواحد: الإسلام ومشكلات الشباب ٤٨.

(٥) أحمد غنيم: مرجع سبق ١٥٢.

(٦) سنن الدارمي: كتاب النكاح، باب الرجل يرى المرأة فيخاف على نفسه. حديث ٢١٣٥ – ٢/ ٥٨٤.

(٧) راجع الحديث رقم ٢٥ من الأربعين النووية.

فالرجل إذا جامع زوجته بقصد إعفاف نفسه وزوجته عن الزنى ومقدماته، أو بقصد قضاء حق الزوجة في المعاشرة بالمعروف، أو بقصد طلب ولد صالح يعبد الله تعالى ويوحده، إذا حصل هذا القصد عند قضاء الوطر كان ذلك عبادة تكتب في سجل حسناته(١).

* * *

وأخيرًا نذكِّر بأن من أهم مظاهر تكريم الإسلام للمرأة أنه أمرها بأن **«تقر في بيتها»** لتؤدي رسالتها السامية زوجة وأما ومربية لأبنائها بالدين والرحمة والحب والحنان. وفي الغرب أصوات ترتفع داعية المرأة إلى العودة إلى البيت. وممن حملوا لواء هذه الدعوة في أمريكا من نصف قرن **الخبيرة الاجتماعية الدكتورة «إيدا إلين»** التي حملت على اشتغال المرأة بالأعمال الحرة تاركة بيتها وأبناءها لتساعد زوجها على رفع مستواهم المعيشي، فارتفع المستوى المعيشي، وانخفض مستوى التربية والخلق. **ومضت الدكتورة الخبيرة تقول**: إن التجارب أثبتت ضرورة لزوم الأم لبيتها، وإشرافها على تربية أولادها، فإن الفارق الكبير بين المستوى الخلقي لهذا الجيل والمستوى الخلقي للجيل الماضي إنما مرجعه إلى أن الأم هجرت بيتها، وأهملت طفلها، وتركته لمن لا يحسن تربيته(٢).

* * *

أما حاجة الفم من طعام وشراب فقد جعل الإسلام طريق إشباعها الكسب بالعمل. وفي عشرات من الآيات جمع الله سبحانه وتعالى بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأنه الترجمان الظاهر للإيمان وهو خفي في السرائر. **ومن الآيات التي تدعو إلى العمل والسعي لطلب الرزق:**

- ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ⑮ ﴾(٣).
- ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ⑩ ﴾(٤).

والإسلام ينظر إلى الرجل المحترف نظرة احترام، والبطالة وحدها كافية لتحقير

(١) د. مصطفى البغا: الوافي في شرح الأربعين النووية ١٩٢.
(٢) انظر البهي الخولي: المرأة بين البيت والمجتمع ١٢٦.
(٣) سورة الملك: [١٥]. (٤) سورة الجمعة: [١٠].

صاحبها وازدرائه، كما حدث عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: **إني لأرى الرجل يعجبني، فأقول: هل له حرفة؟ فإذا قيل لا سقط من عيني**. وكان إذا جلس في مجلس الحكم، وأتاه زائر سأله عما يحترف، فإن كانت له حرفة احتفى به، وإلا ازدراه، وأمره بالاحتراف والعمل. لذلك كان المسلمون يعتزون بأنهم ليسوا عالة على المجتمع، ويوضح ذلك أنه لما سئل **إبراهيم بن أدهم**: كيف أنت؟ قال: **بخير ما لم يتحمل مؤنتي غيري**(١).

ويحرص النبي ﷺ على تأكيد قيمة العمل وشرف العاملين، ويذكر المسلمين بأن أنبياء الله لم يكونوا متواكلين ولا متكاسلين، بل كانوا يعملون ويكتسبون عيشهم بأيديهم يقول ﷺ **«ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»**(٢).

ولذلك نهى الإسلام عن التسول، ودعا المسلم أن يكون ساعيا منتجا، معتمدا في كسب عيشه على نفسه، فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«لأن يأخذ أحدكم حبله، ثم يغدو - أحسب قال إلى الجبل - فيحتطب، فيبيع، فيأكل، ويتصدق خير له من أن يسأل الناس»**(٣).

ومن هذا القبيل حديث رسول الله ﷺ: **«اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعفف يُعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله»**(٤).

---

(١) على شحاته: مصرع الفقر في الإسلام ٦١.

(٢) أخرجه البخارى: كتاب البيوع (٣٤) باب كسب الرجل وعمله بيده (١٥).
حديث ٢٠٧٢ - فتح الباري ٤/ ٣٥٥.

(٣) البخارى: كتاب الزكاة (٢٤). باب قوله تعالى «لا يسألون الناس إلحافا (٥٣) حديث ١٤٨٠ - فتح الباري ٣/ ٣٩٩.

(٤) أخرجه البخارى كتاب الزكاة (٢٤). باب: لا صدقة إلا عن ظهر غنى (١٨) حديث رقم ١٤٢٧. ومسلم: كتاب الزكاة - حديث ٩٩ - ٣/ ٧٤.
وأبو داود: كتاب الزكاة. حديث ١٦٤٨ - ٢/ ١٢٦.
والترمذي: كتاب الزكاة (٥) - باب ما جاء في النهى عن المسألة (٣٨) حديث ٦٨٠ - ٣/ ٥٥. والنسائي: كتاب الزكاة (٢٣) - باب: اليد السفلى - حديث ٢٥٣٣ - ٥/ ٦١. والدارمي: كتاب الزكاة (٣) باب: في فضل اليد العليا (٢٢) - ١/ ٤١٧. وموطأ مالك: كتاب الصدقة (٥٨). باب ما جاء في التعفف عن المسألة - حديث ٨ ص ٦١٦ ومسند ابن حنبل حديث ٥٣٤٤ - ٥/ ٢٧.
واليد العليا: هى المعطية والسفلى: هى الآخذة. عن ظهر غنى: من غير محتاج إلى ما يتصدق به لنفسه أو لمن تلزم نفقته. يستعفف: يمتنع عن المسألة. يعفه: يجعله عفيفا.

والحديث يؤخذ منه كراهة السؤال والتنفير منه، وإنما يكون السؤال مكروها إذا لم تدع إليه ضرورة من خوف هلاك ونحوه. وإذا كان السؤال مكروها عند فقد الضرورة يكون الإعطاء مكروها أيضا. ومن العلماء من ذهب إلى تحريم السؤال والإعطاء عند فقد الضرورة. ومذهب هؤلاء العلماء أرجح ممن اكتفى بالكراهة؛ لأن السؤال سهل لا مشقة فيه، فإذا لم نشدد فيه اتخذه الناس وسيلة للمعاش، وآثروه على الكسب المشروع، فينتشر الفقر في الأمة، وينتشر فيها الجوع والعرى والمرض. ومتى انتشر هذا فيها تأخرت عن غيرها من الأمم، ووقعت فريسة في يد الطامعين من أعدائها[1].

ومن أجمع أحاديث رسول الله ﷺ وأكثرها إيجازا قوله «**لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرّة سَوِيّ**»[2].

* * *

وبين الله سبحانه وتعالى الحلال والحرام من الكسوب: فأحل البيع وحرم الربا والغش والعدوان والسرقة والإغارة على أموال الآخرين. وكان السلف الصالح قدوة طيبة في هذا المجال، ويروى أن الفضيل بن عياض قال **لابن المبارك**[3]: أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، **كيف ذا وأنت تأمرنا بخلاف ذا؟ فقال ابن المبارك**: يا أبا علي أنا أفعل ذا لأصون بها وجهي، وأكرم بها عرضي، وأستعين بها على طاعة ربي، لا أرى لله حقا إلا سارعت إليه حتى أقوم به. **فقال له الفضيل**: يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا[4]..

هذا المسلك العملي السديد يعتمد على **فهم المعنى الصحيح للتوكل** الذى هو - كما قال ابن الجوزى - ثقة القلب بالله عز وجل[5]، واعتماد القلب على الوكيل وحده، وذلك لا يناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب، ولا ادخار المال.. والذى أمر بالتوكل أمر بأخذ الحذر فقال «**خذوا حذركم**» وقال «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**» وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وشاور طبيبين، واختفى في الغار[6].

---

(١) عبد المتعال الصعيدى: توجيهات نبوية ١٤٧.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب الزكاة (٢٣) باب: إذا لم يكن له دراهم (٩٠) - ٥/ ٩٨، ومسند ابن حنبل ٦/ ٣١٣ - حديث ٦٧٩٨. ومسند الإمام زيد: كتاب الزكاة باب من لا تحل له الصدقة - ١٧٨.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بالحاكم النيسابورى (٣٢١ - ٤٠٣) وهو صاحب المستدرك على الصحيحين. كان عالما عارفا واسع العلم. من مؤلفاته: العلل - والأمالى - وتاريخ علماء نيسابور. [انظر وفيات الأعيان ٤/ ٢٨٠ - ٢٨١].

(٤) مختصر شعب الإيمان للبيهقي ٣٧.

(٥) تلبيس إبليس ١٨٤.

(٦) السابق ٢٧٨.

ويحكى عن أحد الصوفية قوله «إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص والكسب، فليس يجيء منه شيء».

ويفند ابن الجوزى هذه القالة بقوله: .... إن التوكل فعل القلب فلا ينافي حركة الجوارح، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين: فقد كان آدم عليه السلام حراثا، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطا، وإبراهيم ولوط زارعين، وصالح تاجرا، وكان سليمان يعمل الخوص، وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة صلوات الله عليهم أجمعين(١).

وحق الملكية الخاصة له اعتباره في الإسلام، وبلغ من رعايته لهذا الحق أنه اعتبر أن الموت دفاعا عنه شهادة، فعن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنه قال: **«سمعت رسول الله ﷺ يقول: من قتل دون ماله فهو شهيد»**(٢).

وعن أبي هريرة – رضى الله عنه – قال: **جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى؟ قال فلا تعطه مالك. قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال قاتله. قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد. قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: هو في النار»**(٣).

* * *

ثالثا: نعمة العقل والقيم الروحية والنفسية:

العقل في أصل اللغة هو الحبس. واعتقل: حبس، وعقله عن حاجته يعقله، وعقّله، وتعقله واعتقله: حبسه. وعقل البعير: ثني وظيفه مع ذراعه وشدهما جميعا في وسط الذراع(٤) والعقال: الرباط الذي يعقل به(٥).

والعقل التثبت في الأمور، والعقل القلب. وسمى العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه. وقيل العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان(٦).

---

(١) السابق ٢٨١.
(٢) البخارى: كتاب المظالم (٤٦) – باب من قاتل دون ماله (٣٣) حديث ٢٤٨٠ – فتح الباري ٥/ ١٤٧.
(٣) مسلم: كتاب الإيمان. باب هدر دم من قصد أخذ مال غيره بغير حق. الحديث ٢٠٨ – ١/ ٣٤٧.
(٤) لسان العرب ٤/٣٠٤٦. (٥) السابق ٤/٣٠٤٧.
(٦) السابق ٤/٣٠٤٦.

ويكاد يكون المعنى اللغوي هو التعريف الاصطلاحى للعقل، وإن تعددت هذه التعريفات، والقاسم المشترك بينها جميعا **هو أن العقل يمثل في الإنسان القوة المدركة المميزة التي تضبط سلوكه وتصرفاته**، وهو نعمة من نعم الله التي كرم الله بها الإنسان، وميزه عن الحيوان «فإن البهائم – وإن كان كلها يحس، وبعضها يتخيل– ليس لها فكرة ولا روية، ولا استنباط المجهول بالمعلوم، ولا تعرف علل الأشياء ولا أسبابها، وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية»(١).

* * *

ومن مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين؛ لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتا تؤيده أرقام الحساب، ودلالات اللفظ اليسير قبل الرجوع فى تأييدها إلى المناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها الآراء. وتلك المزية هى التنويه بالعقل، والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف.

ففي كتب الأديان الكبرى إشارت صريحة أو مضمونة إلى العقل أو إلى التمييز، ولكنها تأتي عرضا غير مقصودة، وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحايين شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منه لأنه مزلة العقائد، وباب من أبواب الدعوى والإنكار.

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة، ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هى تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة حازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله، وقبول الحجر عليه(٢).

وبالمعيار الحسابي نجد أن القرآن الكريم في أكثر من ألف وخمسمائة موضع يذكر العقل ومشتقاته وما يتعلق ويرتبط به مثل:

– عقل – عقلوه– تعقلون –تعقل..

– علم –علمْ –يعلم – يعلمون..

– فقه – تفقهون – تفقه – يفقهوا – يفقهون..

– فكر – تتفكروا – يتفكرون.

(١) الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة: ٩٢.

(٢) عباس العقاد: التفكير فريضة إسلامية: ٥.

- قرأ – اقرأ – قرآن..

- وعى – تعيها – أوعى – واعية

- النُّهى – الألباب..

تلك هى «المواد المباشرة، وهناك مئات من الألفاظ تدور حول العقل والتفكير بصورة غير مباشرة لم نعرض لها.

«والنهوض بحقوق فرائض التفكير والتدبر والنظر والتعقل والتفقه هو الخاصية الإنسانية اللائقة بالإنسان المؤمن، وبغيرها لا فلاح له في الدنيا، ولا نجاة له من النار في الآخرة، بل ولا مكان له في «الدائرة الإنسانية» لأنه بنكوصه عن النهوض بهذه الفريضة والضرورة الواجبة إنما ينتقل إلى دائرة من هم أضل من الأنعام»(١).

وأصحاب العقول الذين يُعملون عقولهم هم الذين يستطيعون أن يقدروا نعم الله وقدرته وعظمته فيما خلق من أرض وسماء وماء وحيوان وأنهار وبحار وليل ونهار وجبال ووهاد، وما في كل ذلك من نظام وتوازن، وتسخير للإنسان حتى يواصل مسيرته في تعمير الكون:

- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢).

- ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣).

والذين يعقلون ويتفكرون وينظرون فيحسنون النظر وإدراك العلائق بين الكائنات هم الذين يدركون ما يضرب الله من أمثال مفصلة للموت والقيامة والبعث وما يرتبط بكل ذلك من قضايا:

- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ

---

(١) د. محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان ٢٩.

(٢) سورة البقرة: [١٦٤].   (٣) سورة الرعد: [٣-٤]

وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

وأولو الألباب هم الذين يدركون حكمة الله في أوامره ونواهيه، وما شرعه للناس:

- ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٢).

وهم أصحاب وعي تاريخي إيماني لذا يتعظون بماأنزله الله بالأمم السابقة من بلاء:

- ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٣).

وهم الذين يجتنبون طريق الشيطان، ويفردون الله بالعبادة، ويقبلون على ما يرضي الله، ويستجيبون للحق، ويأخذون أنفسهم بصوت الهداية والتقوى والصلاح:

- ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾(٤).

* * *

وفي سياق حديثنا عن العقل علينا أن نذكر أن الله سبحانه وتعالى قد كرم الإنسان بالحواس التي تمكنه من إدراك الموجودات، والقدرة على الحياة، والتوافق مع البيئة، والوصول إلى الحق:

- ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾(٥).

وقيمة هذه الحواس ترتبط ارتباطا وثيقا «بكيفية» توظيفها في مجالات الحياة، فدرجة التكريم لا ترتبط بالوجود الذاتي لهذه الحواس، لأن الإنسان يشترك في ذلك مع الحيوانات الأخرى، ولكن بقدر ما تكشف لصاحبها من حقائق الحياة، وبقدر ماتوصله إلي طريق الفهم والاهتداء والتقوى والصلاح:

- ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾(٦).

وبالنظر العاقل والمنطق المبين يعيش الإنسان فيهتدي ويبدع، نعم: لقد جعل له من

---

(١) سورة يونس: [٢٤].

(٢) سورة البقرة: [١٧٩].

(٣) سورة العنكبوت: [٣٤-٣٥].

(٤) سورة الزمر: [١٧-١٨].

(٥) سورة الإسراء: [٣٦].

(٦) سورة البلد: [٨-١٠]

الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات: جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبهما وفي قدرتهما على الإبصار، وميزه بالنطق وأعطاه أداته المحكمة: لسانا وشفتين، ثم أودع في نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر والهدى والضلال، والحق والباطل: وهديناه النجدين ليختار أيهما شاء؛ ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين(١).

وإذا لم تستطع الحواس أن ترتفع بالحقيقة الإنسانية في نفس الإنسان، وتكون وسائل لتحصيل العلم والوصول إلى اليقين والهدى والإيمان فوجودها كعدمها سواء، بل إن الإنسان في هذه الحال يكون أحط مكانة من البهائم؛ لأن البهائم تستخدم حواسّها بأقصى طاقاتها حفاظا على بقائها، أما هو فقد عطل حواسه التي أنعم الله بها عليه لاستعمالها كصاحب رسالة كرمه الله بها باستخلافه في الأرض. وما قيمة العقل إذا ما عطلت طاقته عن الخير؟ وما قيمة العين إذا لم تبصر طريق الهدى؟ وما قيمة الأذن إذا لم تصغ لصوت الحق واليقين؟

- ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾(٢).

لذلك نعى الله سبحانه وتعالى على الكافرين في كل العهود إلغاء عقولهم، وتعطيل حواسهم، كأنها عديمة الوجود:

- ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾(٣).
- ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾(٤).

فهو الصمم مع وجود السمع، وهو العمى مع وجود البصر، وهو الانغلاق مع وجود العقل.

- ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾(٥).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩١٠.
(٢) سورة الأعراف: [١٧٩]. ذرأنا: خلقنا وأوجدنا
(٣) سورة الأحقاف: [٢٦].
(٤) سورة الزخرف: [٤٠].
(٥) سورة الحج: [٤٦].

وتبلغ درجة الإزراء بهؤلاء الكفرة الذين عطلوا حواسهم حدها الفادح بالجمع بين النقيضين في العالمين المشهود والمغيّب.

- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾(١).

وبين طبيعة الكفر وطبيعة كل من العمى والظلمة والحرور والموت صلة. كما أن هناك صلة بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النور والبصر والظل والحياة(٢).

وختام الآيات ينهي مشهد الإزراء بهؤلاء الكفرة «المعطلة» الذين ألغوا حواسهم وهي من نعم الله عليهم بأنهم كالأموات سواء بسواء.

ولا يقف الأمر عند حد «الامتناع الصمت» من هؤلاء، بل إنهم يلجئون إلى التصدي لدعوة الحق مما يعد - في منطق الفكر السديد شهادة ناطقة بالتعطيل الإرادي المقصود والتخلي عن إعمال الفكر، وكل مقومات الشخصية السوية وذلك بالتقليد العقدي الأعمى لموروثات ما أنزل الله بها من سلطان:

- ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(٣).

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾(٤).

* * *

ويأخذ هذا التقليد الأعمى وجها آخر حين يكذبون على الله بزعمهم أن الله أمرهم بالكبائر، وهم يرتكبونها اعتمادا على حجتين هما اتباع الآباء، واستجابة لأمر الله:

- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة فاطر: [١٩-٢٢].

(٢) في ظلال القرآن ٥/٢٩٣٩.

(٣) سورة الزخرف: [٢٢-٢٤]. أمة: دين وطريقة تؤم.

(٤) سورة البقرة: [١٧٠]

(٥) سورة الأعراف: [٢٨].

والحجة الأولى منهارة لأنها تعتمد على التقليد الأعمى، وهو امتهان للعقل وإلغاء للشخصية «وأما الحجة الثانية فقد ردّ الله سبحانه وتعالى عليها بقوله :إن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى أنه لما ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكرة قبيحة، فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها»(١).

* * *

وإذا كان الإسلام يجعل للعقل هذه المكانة التي ترفع قيمة الإنسان على غيره من الحيوانات، فهل من حق العقل أن يكون له سلطة عليا مطلقة لا تقف عندحدود؟

يجيب على هذا السؤال الإمام الشاطبي بقوله: إن الله جعل للعقول في إدراكها حدا تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون، والمتناهي لا يساوي ما لا يتناهي.

وقد دخل في هذه الكلية ذات الأشياء جملة وتفصيلا، وصفاتها وأحوالها وأفعالها وأحكامها جملة وتفصيلا، فالشيء الواحد من جملة الأشياء يعلمه الباري تعالى على التمام والكمال بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أحواله، ولا في أحكامه، بخلاف العبد فإن علمه بذلك الشيء قاصر ناقص، سواء كان في تعقل ذاته أو صفاته أو أحواله أو أحكامه، وهو في الإنسان أمر مشاهد محسوس، لا يرتاب فيه عاقل تخرجه التجربة إذا اعتبرها الإنسان في نفسه(٢).

وبناء على واقع هذا العقل الذي كرم الله الإنسان به، وبناء على قدر طاقته وإمكاناته **وجهه الله سبحانه وتعالى إلى النظر والبحث والتعلم والانتفاع والاعتبار والاتعاظ،** وغير ذلك وجهه الله - سبحانه وتعالى - إلى الابتعاد عن «دوائر المستحيل» لأن البحث فيها مضيعة للوقت، وإهدار للطاقة، وإخلال بالواقع؛ فالعقل كمصباح كهربي له قدرة إنارة معينة بتيار محدد، ولو حمل بتيار أعلى لأهدر وانفجر، وما خلّف وراءه إلا الظلام. **ومن هنا يكون تنبيه العقل إلي تجنب «دوائر المستحيل» يعنى دعوة لتوفير الطاقة العقلية وصيانتها،** وحسن **استخدامها فيما يفيد، وفي ذلك ما فيه من تكريم له وأي تكريم.**

والغيب واحد من هذه الدوائر المستحيلة، وقد استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه:

---

(١) الفخر الرازي ٤ /١٩٨.

(٢) الشاطبي: الاعتصام ٢ /٥١٧-٥١٨.

- ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾(١).
- ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾(٢).
- ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾(٣).

لذلك جعل الله سبحانه وتعالى الصفة الأولى من صفات المتقين «الإيمان بالغيب» لا البحث في الغيب:

- ﴿ الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(٤).

فالإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الخير الصغير المحدد الذي تدركه الحواس أو الأجهزة التي هى امتداد للحواس(٥).

ومحاولة العقول البشرية البحث في الغيب هى محاولة **فاشلة أولا ومحاولة عابثة أخيرا: فاشلة** لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال، **وعابثة** لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال. ومتى سلّم العقل البشري بالبديهية العقلية الأولى، وهى أن المحدود لا يدرك المطلق لزمه – احتراما لمنطقه ذاته – أن يسلّم بأن إدراكه للمطلق مستحيل، وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون، وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن والغيب والشهادة.

وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين(٦).

* * *

وتكريما للإنسان الذي رزقه الله نعمة العقل - كان التكليف، وكان العقل هو مناط هذا التكليف؛ لأن العقل «وازع» يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف، والعقل فهم وفكر يتقلب في وجوه الأشياء، وفي بواطن الأمور، والعقل البشري يميز بين الهداية والضلال، والعقل روية وتدبير، والعقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار، والعقل ذكرى تأخذ

(١) سورة الأنعام: [٥٩].
(٢) سورة آل عمران: [١٧٩].
(٣) سورة الجن: [٢٦].
(٤) سورة البقرة: [١-٣].
(٥) في ظلال القرآن ١/ ٣٩.
(٦) السابق ١/ ٤٠. وانظر كذلك ١/ ٥٢٥، ٧/ ١١٣ وما بعدها.

من الماضي للحاضر، وتجمع العبرة مما كان لما يكون، وتحفظ وتعي، وتبدي وتعيد.

والعقل بكل هذه المعاني **موصول بكل حجة من حجج التكليف وكل أمر بمعروف وكل نهي عن محظور**. أفلا يعقلون؟ أفلا يتفكرون؟ أفلا يتدبرون؟ أفلا يبصرون؟ أليس منكم رجل رشيد؟ أفلا تتذكرون؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التي يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء، ومن أمر أنفسهم، ومن أمر خالقهم وخالق الأرض والسماء لأنهم ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾[(١)] لذلك كان وصف الإنسان بأنه «**الكائن المكلف**» أشرف مكان له في ميزان العقيدة، وفى ميزان الفكر، وفي ميزان الخليقة الذي توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات[(٢)]. ومن عدل الله سبحانه وتعالى ورحمته أنه لم يجعل التكليف إلا **على قدر الاستطاعة**، وبناء عليه تكون المسئولية والجزاء:

- ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾[(٣)]

- ﴿ **..وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾[(٤)]

- ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى (٤١)** ﴾[(٥)].

فالمسئولية في الإسلام ذات «**طابع شخصي**» واضح ويترتب على هذا الطابع -كما يقول الدكتور عبد الله دراز[(٦)] - أن **الثواب والعقاب لا يمكن أن يتأتى فيهما أى تحويل، أو امتداد أو اشتراك أو التباس حتى بين الآباء والأبناء**. وإذا كان آباؤنا وأجدادنا مسئولين مثلاً عن الطريقة التى استعملنا بها هذه التركة، فلا يجب مطلقًا أن نتحمل معهم وزر ما عملوا ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)** ﴾[(٧)].

---

(١) سورة آل عمران :[١٩١] - عباس العقاد: الإنسان في القرآن ١٨.

(٢) العقاد: السابق ١٦. (٣) سورة البقرة :[٢٨٦].

(٤) سورة الأنعام : [١٦٤]. تكسب كل نفس: ترتكب ذنبًا. ولا تزر وازرة وزر أخرى: ولا تحمل نفس آثمة ذنب نفس أخرى.

(٥) سورة النجم :[٣٩-٤١]. (٦) دستور الأخلاق في القرآن ١٤٩.

(٧) سورة البقرة :[١٣٤] والآية نفسها ١٤١.

والمسئولية في الإسلام – وإن اختلفت مجالاتها وأنواعها ودرجاتها – مسئولية شاملة تستغرق المسلمين جميعًا كلاً في مجاله. فعن ابن عمر –رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته» قال: والرجل راع في مال أبيه، ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته»**(١).

ومن عدل الله سبحانه وتعالى أنه أسقط التكليف، ومن ثم المسئولية والجزاء عمن لا عقل له، أو من فقد الوعى، ومن ليس له إرادة حرة. **ومن الأحاديث في هذا الشأن:**

– عن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال: رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل(٢).

فالعقل مناط التكليف، والتكليف يعني تحمل الإنسان مسئولية التكليف قولاً وعملاً، وترتُّب الجزاء على المكلَّف لا يقوم إلا إذا كان يملك حرية الإرادة، أما إذا فقدت هذه الإرادة لسبب من الأسباب، فلا تكليف ولا مسئولية حتى يملك الإنسان إرادته، ويتمتع بوعيه وقدرته على التمييز.

وبذلك استطاع الإسلام أن **يوفق بين استشعار المسلم المسئولية بما فيها من إلزام له ضوابطه الشرعية التي وضعت لصالح الفرد والجماعة وبين حرية الاختيار أو الاختيار الحر**، وهو يرجع كما يقول الدكتور دراز(٣) إلى استخدامنا الحسن أو السيىء لملكاتنا العليا، وهى ملكات يزكي تثقيفها النفس، كما يدسيها ويطمسها إهمالاً ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝**﴾(٤).

* * *

وحرية الإرادة إنما هى نوع أو مظهر واحد من مظاهر الحرية جاء الإسلام وكرم بها

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجمعة (١١) باب الجمعة في القرى والمدن (١١) حديث ٨٩٣ – فتح البارى ٢/٤٤١ وأحمد بإسناد صحيح حديث ٤٤٩٥–٤/٢٨٣.

(٢) اخرجه أحمد بإسناد صحيح حديث ٩٤٠–٢/١١ والنسائى في كتاب الطلاق (٢٧) باب من لا يقع طلاقه من الأزواج (٢١) حديث ٣٤٣٢ – ٦/١٥٦ وابن ماجه: كتاب الطلاق (١٠) باب طلاق المعتوه والصغير والنائم (١٥) حديث ٢٠٤١–٢/٢٢٣. والدارمي كتاب الحدود (١٣) باب رفع القلم عن ثلاثة (١) حديث ٢٢١١–٢/٦١٣.

(٣) دستور الأخلاق في القرآن ٢٩.

(٤) سورة الشمس [٩–١٠]. زكاها: طهرها من الذنوب. دساها: أخفاها وطمسها بالمعصية.

الإنسان بعد عهد -بل عهود طويلة جداً- من العبودية البشعة بنوعيها المادي والمعنوي، مما دفع بعض المفكرين إلى تفسير تاريخ المجتمعات من خلال جدلية السيد والعبد(١).

وهذا يقتضينا وقفة لبيان كلمة الإسلام في الرق والاسترقاق، وموقفه من الحرية.

* * *

شرع الإسلام العتق، ولم يشرع الرق؛ إذ كان الرق مشروعًا قبل الإسلام في القوانين الوضعية والدينية بجميع أنواعه: رق الأسر في الحروب، ورق البيع والشراء، ومنه رق الاستدانة أو الوفاء بالديون(٢).

وقبل الإسلام كان الاقتصاد العالمي كله – كما ذكرنا من قبل – يعتمد اعتماداً كلياً على نظام الرقيق، فلو أن الإسلام حرم الرق طفرة بقرار سريع حاسم – وهو الدين العالمي الخالد الذي جعل التدرج من أهم صفاته التشريعية – لاهتز كيان الاقتصاد العالمي، بل لانهار بناؤه، فقد وجد الإسلام منابع الرق كثيرة، ومصارفه قليلة أو معدومة، فكثّر المصارف ونظمها ووسعها، وردم المنابع، أو وضع لها من الوصايا ما يجعلها تجف من تلقاء نفسها»(٣).

وكانت تقوم بين المسلمين وأعدائهم حروب يؤسر فيها بعض المسلمين فيسترقون، فكان استرقاق أسرى الأعداء من قبيل معاملة المثل، وذلك عين العدل، على أن هناك فروقاً في المعاملة بقدر ما بين الكفر والإسلام من فروق في الطبيعة والأبعاد، هي في واقعها كالفروق بين الظلم والعصبية والغشومة من جانب والإنسانية والرحمة والعدالة من جانب آخر.

كما أن الحرب المبيحة للأسر والاسترقاق لابّد أن تكون «حرباً شرعية» أي «في سبيل الله» بكل ما في هذا الطابع، أو هذه الهادفية من رحابة وإنسانية: كدفع الاعتداء عن المسلمين، وحمايتهم من الفتنة، وإزاحة الطواغيت أولياء الشيطان، ورداً على الناكثين بالعهود بعد توكيدها.

أما إذا كانت الحرب عدوانية من أجل شهوة الفتح والاستغلال والنهب والسلب فهي حرب باطلة، وباطل كل ما تحققه من كسوب ومنها الأسر واسترقاق الأسرى، فالحرب

---

(١) موسوعة السياسة ٣/٨٦٩.

(٢) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ٢١٦، وقد فصلنا القول في ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب، وانظر لعبد الله ناصح علوان نظام الرق في الإسلام ١١ – ١٥.

(٣) محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي ١٢٤.

في الإسلام للهداية والتنوير والتعمير لا للعدوان والنهب والتدمير[1].

ورغب الإسلام المسلمين في عتق الأرقاء بأن جعله قربة يتقربون بها إلى الله...، والعديد من الذنوب الصغيرة الكثيرة الوقوع كفارتها عتق رقبة من الاسترقاق.. وشرع الإسلام لتحرير الرقيق تشريعاً جعله مصرفاً دائماً من مصارف الصدقات وبيت المال **﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾**[2].

فهي فريضة واجبة فرضها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، كما كانت إعانة للغارمين على سداد ديونهم، وكذلك تكافله الاجتماعي السياج الواقي الحامي لعامة الناس من الوقوع في هاوية الاسترقاق[3].

ونلاحظ أن القرآن الكريم لا يعبر عن الرقيق بالعبد، **ولكنه يعبر عنه «بالرقبة» مرتبطة بالتحرير.. «تحرير رقبة أو فك رقبة»**[4]، ودعا الإسلام إلى معاملة الرقيق معاملة إنسانية، وللنبي ﷺ أحاديث متعددة في هذا المجال منها قوله ﷺ **«للمملوك طعامه وكسوته، ولا تكلفونه من العمل مالا يطيق»**[5]، ويوجه رسول الله ﷺ المسلمين إلى رعاية شعور هؤلاء الأرقاء، فلا ينادون ولا يتحدث عنهم بوصف يخدش مشاعرهم، ويكسر قلوبهم **«لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي»**[6].

* * *

ومن أحكام الرق في الإسلام – غير ما ذكرنا –

١ – أن مكاتبة العبد مستحبة بالإجماع، وللإمام أحمد – في رواية – أنها واجبة متى دعا العبد سيده إليها على قدر قيمته أو أكثر، وأن للعبد الاستغلال ليحصل على ما يدفعه من نجوم الكتابة، وأن على سيده السماح له أن يشتغل أين شاء وفيما شاء.

٢ – إذا امتنع المكاتب عن الأداء، ومعه ما بقي فالحنفية تجبره على الأداء، وإذا لم يكن معه مال ولكنه قادر على الكسب فالمالكية تجبره على الكسب.

---

(١) انظر عبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة ٧٣، وعبد الله علوان: نظام الرق في الإسلام ١٧ – ٢٠.

(٢) سورة التوبة: [٦٠].

(٣) محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان ١٩.

(٤) راجع الآيات: النساء ٩٢ – المائدة ٨٩ – المجادلة ٣ – البلد ١٣ – البقرة ١٧٧ – التوبة ٦٠.

(٥) أخرجه أحمد بإسناد صحيح عن أبى هريرة – حديث٧٣٥٨ – ٧/ ١٨١.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب العتق (٤٩) باب كراهية التطاول على الرقيق (١٧) حديث ٢٥٥٢ – ٥/٢١٠، ومسلم كتاب الفاظ الأدب (٤٠) حديث ١٣ – ٥/١٠٦، وأحمد بإسناد صحيح، حديث ٩٦٩٠ – ٩/٢٩٤.

٣ – يراعى في عقد الكتابة حالة الرقيق، فأقل وعد من السيد، أو أقل احتمال للوعد بالتحرير يجعل التحرير ضرورياً.

٤ – اتفق الأئمة على أنه لو كان في يد إنسان غلام بالغ عاقل، وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام، فالقول قول المكذِّب مع يمينه أنه حر، فنرى في هذه الصورة أن قاعدة «البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر» قد خولفت مراعاة لحالة الرقيق، فلم يطلب الشرع من المدعي البينة أولاً، بل جعل القول للمنكر بيمينه.. مما يدل على حرص الشارع على تحرير الرقاب.

٥ – أن من افترش أمة وأتى منها بأولاد فهى أم ولده لا يجوز له أن يبيعها، ولكنها لا تتحرر تماماً إلا بعد موته[١].

* * *

فالإسلام إذن – من منطلق تكريم بني آدم – عمل على تحرير الإنسان من الرق، ليس هذا فحسب، بل كان أول نظام يمنح الإنسان – **بصرف النظر عن جنسه ولونه ومعتقده – ما يمكن أن نسميه «الحرية الشاملة»** تلك التى تتناول كل جوانب الحياة، وتمكن الإنسان من العيش والمعايشة بإرادته دون أن يكون مقهوراً أو مظلوماً، أو واقعاً تحت ضغط غير مشروع فهى «الانطلاق المشروع في الرأى والاعتقاد، وفي القول وفي الفعل وفي الاتصال بالغير»[٢].

والحرية الحقيقية تبتدئ بتحرير النفس من سيطرة الأهواء والشهوات وجعلها خاضعة لسلطان العقل والإيمان، ولذلك دعا الإسلام إلى تحرير النفوس من هذه السيطرة، وندد بالذين يتبعون أهواءهم من غير أن تسيطر عقولهم وإرادتهم، وعبر عن هؤلاء الذين يخضعون لأهوائهم بأنهم يتخذون إلههم هواهم، والنبى ﷺ دعا إلى إخضاع الهوى للإيمان وحكم العقل، فقد قال ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»**.

وعلى ذلك لا يعرف الإسلام من الحرية الانطلاق وراء الهوى من غير قيد من حكم العقل والإيمان الصادق، إنما الحرية تبتدئ بتحرير الإرادة والعقول من أغلال الأهواء[٣].

والإسلام يقرر للإنسان أن يفكر فيما شاء كما يشاء، وهو آمن من التعرض للعقاب

(١) انظر جاويش: مرجع سبق ٧٥ – ٧٦.
(٢) د. محمد البهي: الإسلام والفلسفات المعاصرة ٥٦.
(٣) أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام ٢٩.

على هذا التفكير، ولو فكّر في إتيان أعمال تحرمها الشريعة؛ والعلة في ذلك أن الشريعة لا تعاقب الإنسان على أحاديث نفسه، ولا تؤاخذه عما يفكر فيه من قول أو فعل محرم، وذلك معنى قول الرسول ﷺ : **«إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها مالم تعمل به أو تتكلم»**(١).

وقد تدرج القرآن الكريم في تدريب الناس على التفكير في مراحل متعاقبة:

فالطريق الأول: إعمال الفكر بالنسبة للمحسوسات والمرئيات(٢).

والطريق الثاني: يخاطب فيه القرآن الناس لإقناعهم عن طريق الأسباب والمسببات(٣).

والطريق الثالث: هو طريق الاتجاه الرفيع بعد أن يكون العقل قد تدرج في التفكير حتى وصل إلى هذه المرتبة، وفي ذلك يقول تعالى: **﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾**(٤).

كما أن هناك طرائق أخرى للفكر تجمعها جميعاً آية واحدة هي قوله تعالى: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾**(٥).

تلك هي حرية الفكر والتفكير في الإسلام، ربطها الله سبحانه وتعالى بوجود الإنسان ذاته، ودعاه القرآن إلى استعمال حقه في التفكير والتأمل مستخدماً طاقاته العقلية دون أن يعطلها بالتقليد الأعمى، أو يهدرها فيما لا ينفع ويفيد.

* * *

وكذلك كفل الإسلام للإنسان حرية العقيدة، وكان من قواعد الإسلام الراسخة قاعدة **«لا إكراه في الدين»** و **«لكم دينكم ولي دين»** أما الرسول ﷺ فما عليه إلا البلاغ(٦)، وسبيل هذا البلاغ الحكمة والموعظة الحسنة، **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾**(٧).

(١) عبد القادر عودة: التشريع الجنائي الإسلامي ١/٣١.
(٢) ارجع إلى سورة الغاشية الآية ١٧ وما بعدها، وسورة ق الآية ٦ وما بعدها.
(٣) ارجع إلى سورة النحل الآية ١٠ وما بعدها.
(٤) سورة الذاريات: [٢١].
(٥) سورة فصلت: [٥٣]، وانظر د. عبد الحكيم العيلي: الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام ٤٣٥ - ٤٣٦.
(٦) ارجع إلى سورة النور ٥٤.
(٧) سورة يونس: [٩٩].

بل إن الله سبحانه وتعالى ليأمر نبيه ﷺ ألا يغلق بابه في وجه مشرك استجار به، فعليه أن يجيره ويحميه، ولا يتخلى عنه إلا أن يبلغ بر الطمأنينة والأمان ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ** ﴾(١).

* * *

وكانت **عهود النبي ﷺ للذميين دليلاً قاطعاً على كفالة الحرية الشاملة لهم، وخصوصاً حرية الاعتقاد**، كما نرى في «عهد» النبي ﷺ لنصارى نجران(٢)، ذلك العهد الذي أكده ووثقه خلفاؤه الأربعة، ففي خلافة أبي بكر ينص العهد على أنه **«أجارهم بجوار الله وذمة محمد ﷺ على أنفسم وأرضهم وثلتهم – أى جماعتهم – وأموالهم، وحاشيتهم وعبادتهم وغائبهم وشاهدهم وأساقفتهم ورهبانهم وبيعهم»**(٣).

وحينما فتح المسلمون إيلياء (بيت المقدس) كتب عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – كتاباً سنة ١٥ هـ نص فيه على أنه... **«أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقض منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود...»**(٤).

وعقد الأمان أو عقد الذمة يوجب على المسلمين حماية الذميين من العدوان الخارجي، ومن الظلم الداخلي وحماية أموالهم، وتأمينهم عند العجز والشيخوخة والفقر، وكفالة حرية التدين والاعتقاد والعمل والكسب(٥).

وأموال الذميين مضمنة لو اعتدى أحد المسلمين حتى لو كانت مما حرمه الإسلام كالخمر والخنزير، **فإذا أتلف مسلم خمراً أو خنزيراً لذمي فإن على المتلف ضمان ما أتلف لأنه مال متقوَّم في حقهم**(٦).

* * *

---

(١) سورة التوبة: [٦].

(٢) كان ذلك في العام العاشر للهجرة: انظر نص العهد في تاريخ الطبرى ٢/١٢٨، والخراج لابي يوسف ١٥٧، وفي الخراج كذلك نص عهد عمر لهم ١٦١؛ ونص عهد عثمان ١٦٢.

(٣) الطبرى ٣/٥٨٥.

(٤) تاريخ الطبري ٣/٦٠٩.

(٥) انظر في تفصيل ذلك: يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ٩ – ٢٥.

(٦) بهذا قال الحنفية، وكذلك المالكية، وإن اشترط المالكية للضمان الا يظهر الذمي الخمر والخنزير، ولا ضمان لهما عند الشافعية والحنابلة لأن مالا يكون مضموناً في حق المسلم لا يكون مضموناً في حق غيره، [راجع الموسوعة الفقهية ٧/١٣٢]، وفي تفصيل حقوق أهل الذمة راجع كتاب القرضاوي السابق ٩ – ٣٠.

ولا ينقض هذه الرعاية وتلك العدالة **فرض الإسلام الجزية على أهل الذمة**؛ لأن الجزية إذا نظر إليها نظرة حسابية تبين لنا أنها تقل عما يؤديه المسلم من واجبات مالية بمقتضى دينه؛ فإنه يؤدي عما يملك من أموال منقولة ما مقداره ربع العشر من رأس المال، ويؤدي العشر من صافي غلات الأموال الثابتة، ثم إن الدولة تشاركه فيما يغنمه من الحروب، فتأخذ الخمس، وعلى المسلم كفارات ونذور، فكفارة اليمين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم إذا حلف وحنث، وكفارة الإفطار في شهر رمضان متعمداً إطعام ستين مسكيناً، وهكذا غير ذلك من الكفارات التي يؤديها بمقتضى دينه، وهي مصادر لتمويل التكافل الاجتماعي الذي ينتفع منه المسلم وغير المسلم في أحوال كثيرة(١).

والجزية مبلغ من المال زهيد يدفع للدولة سنوياً على الرءوس، ويختلف باختلاف حال الرجل: فعلى الغني ٤٨ درهماً، وعلى المتوسط ٢٤ درهماً وعلى الفقير المعتمل ١٢ درهماً(٢).

على أن هناك أسباباً متعددة لإسقاط الجزية عن الذمي مثل إسلام من فرضت عليه الجزية، أو موته، أو عجزه المالي، أو عجز الدولة عن توفير الحماية لأهل الذمة، أو الإصابة بالعاهات المزمنة، أو اشتراك الذميين في القتال(٣)، وذهب أبو حنيفة إلى سقوط الجزية إذا لم تحصل في سنتها، وحل ميعاد الثانية(٤).

* * *

فاختلاف العقيدة إذن لم يمنع المسلمين من رعايتهم للذميين، والوفاء بعهودهم معهم، وحمايتهم مما يحمون منه أنفسهم حتى عاش الذميون يتمتعون بالعدل والحرية شأنهم شأن المسلمين، بل كان لبعضهم في بعض العهود مراكز ومناصب وثروات تفوق ما كان عليه كثير من المسلمين.

وقد أسرف بعض الحكام المسلمين في مصر في استخدام بعض الذميين، وخصوصاً اليهود في المناصب العليا، وقد استغلوا سماحة الإسلام استخداماً سيئاً لمصالحهم الشخصية مما جعل أحد الشعراء يقول منددًا بعلو المنزلة التي وصل إليها اليهود:

يهود هذا الزمان قد بلغوا

غاية آمالهم وقد ملكوا

---

(١) أبو زهرة: المجتمع الإسلامي في ظل الإسلام ١٩٧.
(٢) الموسوعة الفقهية ١٥/١٨٣.
(٣) السابق ١٥/١٩٩.
(٤) انظر السابق ١٥/٢٠٢.

العــــزُّ فـــيـــــهم والمال عنـدهُمُ

ومنـهُمُ المســـتـــــشـــار والملكُ

يا أهل مـــصـــر إني نصـــحت لكمْ

تهـــودوا؛ قـــد تـهـــود الفلكُ(١)

* * *

والفكر والاعتقاد أمران خفيان، **والتعبير عنهما** هو المظهر العملي **التطبيقي** للحرية في لونيها السابقين، ومن هنا تأتي قيمة حرية التعبير، وقد رفع الإسلام «**الكلمة البانية**» مقاماً علياً، وسماها «**الكلمة الطيبة**»، وهي تلك الكلمة الفاعلة الهادية التي تحمل العلم والحق والفضيلة والخير للناس ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)**﴾(٢).

كما ذم القرآن الكريم «**الكلمة الخبيثة**» التي تكب الناس في النار على وجوههم، إنها الكلمة التي تؤدي إلى تخريب الفرد، وتدمير المجتمع ﴿**وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)**﴾(٣).

فالإسلام لا يحجر على «الكلمة»، بل يدعو المسلم «**أن يقول**»، وجاء في القرآن الكريم فعل الأمر «قل» ٣٣٢ مرة، فهو أكثر الأفعال استعمالاً في القرآن على الإطلاق، وهو يمثل الدعوة الهادية إلى الإيمان الحق والبناء، ونشر العلم، والدفاع عن الدين والحق والحقيقة، وهو إيحاء قوي بما **للكلمة الطيبة** من أثر فعال في كل جوانب الحياة.

والإسلام لا يضع على حرية التعبير قيوداً تكبلها، ولكن ضوابط تنظمها، وتسمو بها، وترفع من قيمتها حرصاً على الخلق والنظام والآداب العامة وسلامة المجتمع واستقرار الأمور.

* * *

وتتعدد أنواع الحريات التي دعا الإسلام إلى مزاولتها والتمتع بها منها: الحرية السياسية، والحرية أو الحريات الاجتماعية كحرية التملك، وحرية العمل، وحرية التعلم

(١) عن كتاب محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ٤٦.

(٢) سورة إبراهيم: [٢٤ – ٢٥]. (٣) سورة إبراهيم: [٢٦].

وغيرها، وكل أولئك يأخذ صورته المطلقة التى لا يقيدها - وبتعبير أدق: لا يضبطها - إلا الاعتبارات الإنسانية والخلقية ورعاية مصالح المجتمع، وعدم الإضرار بالآخرين.

والحر - كما ذكرنا - **لا يكون حراً إلا إذا كان ابتداء «سيد نفسه»، قاهراً لشهواته،** منتصراً على غرائزه، ومطامعه الدنيا، وبذلك «لا يمكن أن يكون معتدياً؛ لأنه يسيطر على أهوائه وشهواته، ولأنه يعطي غيره ما يعطيه لنفسه، ولأنه يحس بالمعاني الإنسانية التي يجب أن يلتزمها بالنسبة لغيره...

والأمة الحرة أو الدولة يجب أن تكون فيها المعاني التي تكون في الحر، لأن الدولة شخصية معنوية تتصف في المعاملة بما يتصف به الشخص الحقيقي، فلا يمكن أن تكون دولة حرة، أو أمة حرة تلك التي تفرض أن غيرها عبيد، أو كالعبيد لها، أو أن لها من الحقوق على غيرها أكثر مما لها(١).

وبهذا المفهوم تلتقى حرية الفرد وحرية المجتمع في المعنى والطبيعة والغاية، فيكون الفرد صورة مصغرة للمجتمع، ويكون المجتمع صورة مكبرة للفرد، ويتحقق السلام والطمأنينة والأمن والاستقرار.

* * *

وفي نهاية هذا الفصل نذكّر القارىء - بعد أن رأينا مظاهر تكريم الإسلام للإنسان - بأن الإسلام أتى بمعيار جديد للمفاضلة بين الناس، **وبناء على هذا المعيار فضل الله سبحانه وتعالى: «أمة المؤمنين»** على غيرهم من الأمم: روى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال: خطب النبي ﷺ الناس يوم فتح مكة فقال:

يأيها الناس: إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾(٢).

لقد رأينا من قبل كيف كان التفاضل بين الناس في الجاهلية يعتمد على الأنساب والغنى وقوة النفوذ، فجاء الإسلام ليضع معياراً جديداً للتفضيل بين الناس **هو التقوى والعمل الصالح**، فالفاضل الكريم على الله هو البّر التقي النقي، والهين الذي لا قيمة له

(١) أبو زهرة: المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ١٨٨.

(٢) سورة الحجرات: [١٣]، والحديث رواه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٣٨٩، عبيتها: نخوتها وكبرها وفخرها.

عند الله هو الفاجر العاصي الذي يشقى في الدنيا والآخرة بعمله، **أما الأنساب فهي بحساب الله ساقطة لا قيمة لها أمام المعيار العادل الخالد: العمل والتقوى**: ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(١٠٣)** ﴾(١).

وتضافرت النصوص في القرآن الكريم والسنة النبوية تدعو المسلمين إلى الإيمان بهذا المعيار الخالد في التفضيل: **معيار التقوى والعمل الصالح**: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)** ﴾(٢).

واستجاب المسلمون فكانوا هم هذه «الأمة الفاضلة» فقد أخذوا أنفسهم بهذا الأمر، فكانوا - في مجتمع المدينة بخاصة - تطبيقاً عملياً لهذه الاستجابة قولاً وعملاً وسلوكاً، ومن ثم جاء وصفهم في القرآن الكريم حقاً وصدقاً: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...** ﴾(٣).

والأفضلية أو الخيرية هنا مرتبطة في وجودها بقيام هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، فهو «مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير، وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح، ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سبباً لهلاكهم»(٤).

إنه الاصطفاء لهذه الأمة بهذه المسوغات أو المؤهلات الثلاثة: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، وتكون لها القيادة بما أنها خير أمة، وإنما ينبغي دائماً أن تعطي الأمم مما لديها، وأن يكون لديها ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح... ومن هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير، ويدفعها إلى السبق في كل مجال لو أنها تتبعه وتلتزم به، وتدرك مقتضياته وتكاليفه(٥).

فإذا أسقطت الأمة من معجم حياتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سقطت في

---

(١) سورة المؤمنون: [١٠١ - ١٠٣].
(٢) سورة آل عمران: [١٠٤].
(٣) سورة آل عمران: ١١٠.
(٤) القرطبي ٢/١٤١٥.
(٥) في ظلال القرآن ١/٤٤٧.

مستنقع التحلل والتلاشي والهلاك؛ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كما يقول أبو حامد الغزالي «**هو القطب الأعظم في الدين، وهم المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين**، ولو طوي بساطة، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد(١).

لذلك أنزل الله سبحانه وتعالى اللعنة على الكافرين من بني إسرائيل لأنهم أقروا المنكر فيهم ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)**﴾(٢).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر موجه للمسلمين جميعاً حكامهم ومحكوميهم، خاصتهم وعامتهم، كل في مجاله بقدر استطاعته؛ لأنهم أفراد في «الأمة» التي وصفها الله بأنها خير أمة لقيامها بذلك، وانطلاقاً من الشعور الصادق بالمسئولية والنهوض بها، وقد نبه رسول الله ﷺ إلى ذلك في حديثه الذي عرضناه من قبل: «**كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته...**».

وبذلك تكون الأمة الإسلامية جديرة بهذا «**الاصطفاء**» للاضطلاع برسالتها الإنسانية، وأداء دورها الطليعي في قيادة البشرية إلى نور الهداية والتقدم، والإيمان، وفي ذلك تكريم جليل لها... وأي تكريم!!

(١) إحياء علوم الدين ٧/١١٨٦.

(٢) سورة المائدة: [٧٨ - ٧٩].

الفصل الثالث

مفهومُ العـــزة وأبعـادُهـــا...

المفهـوم اللغـوي

العز: خلاف الذل، ويقال مطر عَزٌّ: أي شديد، وعز الشيءُ يعِزّ عَزًا وعِزة وعَزازة: إذا قل، لا يكاد يوجد فهو عزيز. وعز فلان: صار عزيزاً: أي قوي بعد ذلة، وأعزه الله، وعززتُ عليه أيضا: كرمت عليه.

وعزّ عليّ أن تفعل كذا، وعز عليّ ذاك: أي حق واشتد. وفي المثل: «إذا عز أخوك فَهُنْ».

وعزّه أيضاً يعزُّ عزا: غلبه، وفي المثل «**من عزَّ بزَّ**»، أي من غلب سلب، والاسم **العزة** وهي القوة والغلبة.

وعَزّهُ في الخطاب وعازّه أي غالبه. وأرض معزوزه أي شديدة. والمطر يعزز الأرض أي يلبدها. والعزّاء السنة الشديدة(١).

وجاء في مقاييس اللغـة:

عز: العين والزاء أصل صحيح واحد يدل على شدة وقوة، وما ضاهاهُما من غلبة وقهر. ورجل معزوز أي اجتيح ماله وأخذ. ويقال: استعزّ عليه الشيطان: أي غلب عليه وعلى عقله، واستعز عليه الأمر إذا لجّ فيه. قال الخليل: العزازة أرض صلبة ليست بذات حجارة، لا يعلوها ماء. والعِزّ من المطر الكثير الشديد، وأرض معزوزة إذا أصابها ذلك(٢).

وعزّ الماء: سال. وعزت القرحة: سال ما فيها، وأعز فلاناً: أحبه. وعزّت الشاةُ: استبان حمْلُها وعظم ضرعها. وأعزّتْ:عسر حملها. وتعزز لحمه: اشتد وصلب. والعزيزة: العُقاب. قال أبو كبير الهذلي:

حتى انتهيتُ إلى فراشِ عزيزة
سوداءَ روثَةُ أنْفها كالمِخْصَفِ(٣)

وملْكٌ أعزّ وعزيز بمعنى واحد. وعزٌّ عزيزٌ: إما أن يكون على المبالغة، وإما أن يكون بمعنى مُعزّ. قال طرفة:

---

(١) الصحاح: مادة عزز ٣/ ٨٨٥.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٣٨.

(٣) القاموس المحيط ٦٦٥.

ولـو حـــــصـــــدَتْـهُ تـغـلـبُ ابـنـةُ وائـل

لـكـانُـوا لـه عـــــزًّا عـــــزيـزا ونـاصـــــرا

وقولهم: تعزيت عنه: أي تصبرت، أصلها تعززت أي تشددت، مثل تظنيت من تظننت.. والاسم منه العزاء. واستعزَّ الرمل: تماسك فلم ينْهَلْ. واستُعِزَّ بفلان: أي غُلِبَ في كل شيء من عاهة أو مرض أو غيره. واسْتُعِزَّ بالعليل: إذا اشتد وجعُه، وغُلب على عقله[1].

* * *

فالعزة لغة تعني القوة والشدة والصلابة والمنعة والكثرة والفضل والغلبة والتماسك والكرامة.

والعزة - في الاستعمال القرآني - لا تكاد تخرج عن هذه المعاني. وقد عرفها الراغب الأصفهاني[2] بأنها: حالة مانعة للإنسان من أن يُغْلب. قال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾[3].

والعزيز: الذي يُقْهِر، ولا يُقْهَر ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦)**﴾[4] ﴿**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ**﴾[5].

وقد يُذم بالعزة، كقوله تعالى: ﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)**﴾[6]، فعزتهم هي التعزز، وهي في الحقيقة ذل، كما قال عليه الصلاة والسلام «**كل عز ليس بالله فهو ذل**». وقد تستعار العزة للحمية المذمومة وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ**﴾[7]. وعزه: غلبه، قال تعالى: ﴿**وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)**﴾[8]؛ أي غلبني، وقيل معناه: صار أعزّ مني في المخاطبة والمخاصمة. وعز الشيء: قلّ، اعتبارا بما قيل: «كل موجود مملول، وكل مفقود مطلوب». وقوله تعالى ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١)**﴾[9]، أي يصعب مناله ووجود مثله.

* * *

(١) لسان العرب مادة عزز ٤ / ٢٩٢٥ - ٢٩٢٨.
(٢) المفردات في غريب القرآن ٣٣٥.
(٣) سورة النساء: [١٣٩].
(٤) سورة العنكبوت: [٢٦].
(٥) سورة يوسف: [٨٨].
(٦) سورة ص: [٢].
(٧) سورة البقرة: [٢٠٦].
(٨) سورة ص: [٢٣].
(٩) سورة فصلت: [٤١].

ونعود إلى تعريف الراغب للعزة بأنها «**حالة مانعة للإنسان من أن يُغْلَب**» لنرى أنه تعريف دقيق على إيجازه؛ فهو يسترفد ما تلتقي عليه أغلب المعاني المعجمية التي سقناها، **والعزة على هذا الاعتبار يكون لها جانبان**:

الأول هو الجانب الحسي أو المادي: هو يتمثل في تدرع الموصوف بها بالسلاح أو المال أو الرجال والولد أو التحصن بالجدر أو القلاع، وما شابه ذلك، وفي مثل هذه الحال يقال: هو أعز الناس وأمنع الناس، وفي هذا المعنى تكثر الأمثال العربية، ومنها على سبيل التمثيل: **أعز من أنف الأسد**(١)، **أعز من كليب وائل**(٢)، **أعز من عقاب الجو**(٣).

أما الثاني فهو الجانب النفسي أو الشعوري: فتكون العزة هنا «خلقا» لا «موقفا»؛ لأنها تعتمد على استشعار النفس الترفع والسمو والتنزه عن الدنايا. ومن أمثال العرب في ذلك: **أعزُّ من قَنُوع**: قال الشاعر:

وكنتُ أعزَّ عزًّا من قَنُوعٍ
ترفعَ عن مطالبةِ المُلُوكِ(٤)

والقنوع هو الذي يستشعر غنى النفس والرضا بواقع حاله، فلا يتدنى لسؤال.

* * *

وهناك كلمات تختلط أو تقترب في معناها من العز، ولكن يبقى بينها وبين العز أو العزة فروق. ومن هذه الكلمات:

الشرف: وهو العلو، والمكان العالي، والمجد، ولا يكون إلا بالإباء أو علو الحسب(٥).

والفرق بين العز و الشرف: أن العز يتضمن معنى الغلبة والامتناع، أما قولهم «**عز الطعام فهو عزيز**»، فمعناه قلّ حتى لا يقدر عليه لقوته ومنعته لأن العز بمعنى القلة.

والشرف: إنما هو في الأصل: شرف المكان، ومنه قولهم «**أشرف فلان على الشيء**»؛ إذا صار فوقه، ومنه قيل: شرفة القصر. وأشرف على التلف: إذا قاربه، ثم استُعمل في كرم النسب، فقيل للقرشي شريف، وكل من له نسب مذكور شريف، كما يقال له

---

(١) خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية ٢/٦٦٦.

(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢/٣٠٥، وكليب وائل هو كليب بن ربيعة بن الحارث بن زهير، وكان سيد ربيعة في زمانه، وبلغ من جبروته أنه كان إذا مر بروضة أعجبته أطلق كليباً فحيث بلغ نباحة كان حمى لا يُرعى؛ أي دخل في ملكه لا يقربه أحد غيره!

(٣) خير الدين: السابق ٢/٦٦٩: «والعقاب من العتاق التي يصاد بها ويوصف بانه سيد الأجواء ويجمع على عقبان وأعقب وأعقبه».

(٤) مجمع الأمثال، ٢/٥٠٥.

(٥) القاموس المحيط، ١٠٦٤.

عزيز[1].

وقد يخلط بعضهم بين العزة والغرور، وهو خلط في غير محله؛ لأن **الغرور** آفة نفسية عرفت بأنها: **سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع**[2].

والغرور قريب في معناه من **الكِبْر**، وهو: الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره[3].

وهناك من الكبر أو التكبر ما يعد فضيلة، وهو الذي قال عنه الإمام علي – كرم الله وجهه – «**التكبر على المتكبرين هو التواضع بعينه**»[4].

* * *

والكرامة تقترب في معناها من العزة، وهي اسم يوضع للإكرام، كما وضعت الطاعة موضع الإطاعة، والغارة موضع الإغارة.

والكرامة مصدر كرم، يقال: كرُم الرجلُ كرامة: عزّ، وله عليّ كرامة: أي عزازة، وتكرم عن الشيء وتكارم: تنزه. وتكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عن الشائنات[5]. قال أبو حية:

ألم تعلمي أنّي إذا النفسُ أشرفتْ
على طمعٍ لمْ أنْسَ أن أتكرَّما![6]

فالكرامة تأتي بمعنى الإعزاز والتفضيل والتشريف وإكرام الضيف[7].

* * *

وهى فى الاصطلاح: ظهور أمر خارق للعادة على يد شخص ظاهر الصلاح، غير مقارن لدعوى النبوة والرسالة[8].

وبصرف النظر عن المفهوم الاصطلاحى للكرامة نجد أن العزة أوسع فى معناها ومجالاتها من الكرامة.

المفهوم الإيماني للعزة:

حتى نستطيع أن نعي ما أطلقنا عليه المفهوم الإيماني للعزة، أو العزة بمفهومها

(١) أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية ١٤٨.
(٢) أبو الحسن الجرجاني: التعريفات ٩٢.
(٣) الراغب: المفردات ٤٢٣.
(٤) نهج البلاغة ٩٣٣.
(٥) لسان العرب ٣٨٦٢.
(٦) أساس البلاغة ٣٩١.
(٧) انظر الموسوعة الفقهية ٣٤/٢١٦ – ٢١٨.
(٨) انظر السابق ٢١٦ – ٢٢٠.

الإيماني، وهو المفهوم السوي القويم - كما سنرى - علينا ابتداء أن نعرف المفهوم الممسوخ الشائه للعزة، وهو مفهوم الكفرة والمنافقين وذوي الفكر الشاذ والعقول المنحرفة، فبضدها تتميز الأشياء.

والتشوه الذي يطبع هذه «**العزة**» نابع أساسا من «**الانحراف الأم**».. انحراف العقيدة، والإيمان بغير الله، والانقياد للهوى والشيطان، كما نرى في قوله تعالى: ﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ** ﴿٢﴾﴾(١)، فالعزة هنا ما يظهرونه من الاستكبار عن الحق، لا العزة الحقيقية؛ فإنها لله ولرسوله وللمؤمنين(٢). ويؤكد هذا المعنى الجمع بين العزة والشقاق، والشقاق هو إظهار المخالفة والمباينة، وهو من الشّق، كأن هذا في شق، وذلك في شق(٣).

فالشقاق هو الوجه العملي الظاهر لهذه العزة الممسوخة في صورة استكبار عات، وحمية جاهلية كافرة. وهذا المفهوم الشائه للعزة هو نفسه الذي عرضه قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴿٢٠٦﴾﴾(٤)؛ أي إذا وُعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام(٥).

إنه الغرور والاستعلاء والتكبر على عباد الله، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا المفهوم الموكوس الشائه للعزة إذ قال لعائشة: «**هل تدرين لم كان قومك رفعوا باب الكعبة؟ قالت لا، قال تعززا ألا يدخلها إلا من أرادوا**»؛ أي تكبرا، وتشددا على الناس(٦).

وهذا المفهوم للعزة في السياقة القرآنية لا يأتي إلا مرتبطاً بالخصام والمخالفة والفساد والعدوان على الحق، وهذا الارتباط بين النفسي أو الخلقي وبين العملي الظاهر واضح في الآيتين السابقتين لهذه الآية مباشرة وهما ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** ﴿٢٠٤﴾ **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴿٢٠٥﴾﴾(٧).

---

(١) سورة ص: [٢].

(٢) الألوسي: روح المعاني ١٣/ ٢٤٠.

(٣) القرطبي: ٧/ ٥٥٨٩.

(٤) سورة البقرة: [٢٠٦].

(٥) لسان العرب: ٤/ ٢٩٢٥.

(٦) ابن كثير ١/ ٣١٦.

(٧) سورة البقرة: [٢٠٤ - ٢٠٥]. روي عن ابن عباس أنه قال: لما أصيبت السرية التي فيها عاصم ومرثد، قال رجلان من المنافقين: ياويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا: لا هم قعدوا في أهليهم، ولا همْ أدوا رسالة صاحبهم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ...﴾ وعن السدي قال: نزلت في الأخنس بن شريق: أقبل إلى النبي ﷺ وأظهر له الإسلام فأعجبه ذلك منه، ثم خرج فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر. فأنزل الله الآية. [الواحدى: أسباب النزول ٥٩ - والسيوطي لباب النقول ٤٠].
وقال محمد بن كعب: «إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامّة بعد»، قال ابن كثير: وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح. (تفسير ابن كثير ١/ ٣١٥).

وهذه العزة يتشبث بها الكفار في طواغيتهم، ويعتقدون أنها تحميهم وتدفع عنهم، وتوصلهم إلى ما يبتغون، كما نرى في قوله تعالى على ألسنة السحرة ﴿ **بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ** (٤٤) ﴾[١].

وهذا يحتمل أن يكون قسما، ويحتمل أن يكون خبرا: أي نغلب بسبب عزته[٢]. وامتد هذا المفهوم الممسوخ عندهم ليصْدق – لا على الدنيا فحسب، ولكن على الآخرة كذلك – ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا** (٨١) ﴾[٣]؛ أي منعة وقوة يعتزون بها لتحميهم يوم القيامة من عذاب النار، ولكن ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون كما طمعوا. قال تعالى: ﴿ **كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا** (٨٢) ﴾[٤] أي بخلاف ما ظنوا فيهم[٥].

وهو نفسه منطق المنافقين الذين كانوا ينشدون العزة أي القوة والمنعة بموالاتهم سراً لليهود أو مشركي العرب، وروي أنه كان يقول بعضهم لبعض «إن أمر محمد لا يتم فتولَّوْا اليهود»[٦]. قال تعالى ﴿ **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** (١٣٨) **الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** (١٣٩) ﴾[٧].

ويعتقد المنافقون أن «**مصدر العزة**» هو الغنى والمكانة الاجتماعية، فكانت نظرتهم للمهاجرين – وخصوصاً الفقراء منهم – نظرة احتقار واستهانة، فكانوا يلقبونهم بالجلابيب»[٨].

إن رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول استغل فرصة خلاف بين مهاجر وأنصاري على الماء وذلك في **غزوة بني المصطلق**[٩]، فغضب ابن سلول وعنده رهط من قومه فقال: أو قد فعلوها؟! لقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأُوَل: سمّن كلبك يأكلك، **أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**[١٠].

---

(١) سورة الشعراء: [٤٤].

(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني ٤/١٢٤.

(٣) سورة مريم: [٨١].

(٤) سورة مريم: [٨٢].

(٥) ابن كثير: ٥/١٦٠.

(٦) الألوسي: روح المعاني ٤/٢٥٢.

(٧) سورة النساء: [١٣٨ – ١٣٩].

(٨) الجلابيب: جمع جلباب، والجلباب ثوب خشن، وكان المهاجرون لما هاجروا كان لباسهم الجلابيب، فأطلق عليهم المنافقون هذا اللقب استهزاء بهم لفقرهم وغربتهم.

(٩) كانت غزوة بني المصطلق أو المريسيع سنة ٦ هـ. ارجع إلى تفاصيل الغزوة في السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٨٩ – ٢٩٦.

(١٠) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٦١.

وواضح أنه يقصد بالأعز نفسه ومن معه من المنافقين، ويقصد بالأذل النبي ﷺ ومن معه من المهاجرين. ومن عجب أنه كان بعد أن نزل النبي ﷺ بالمدينة إذا جلس رسول الله يخطب للجمعة قام فقال: «**أيها الناس: هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله، وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا**»!

فهذا موقف من يشهد بعزة النبي ﷺ والمؤمنين، فلما غدر، وانخذل ومن معه من المنافقين يوم أحد نهره المسلمون، ومنعوه أن يقف هذا الموقف الذي كان فيه تشريف له؛ لأنه ليس له بأهل»(١).

ويأتي موقفه في غزوة بني المصطلق لينقض به شهادته هذه، وتأتي شهادة الأنصار على لسان **أسيد بن حضير** «**فأنت يا رسول لله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز**».

فمن العزة ما هو أصيل نبيل، ومن العزة ما هو خسيس ذليل. وهذا ما نبّه إليه **الراغب الأصفهاني: فالعزة التي لله ورسوله وللمؤمنين** هي الدائمة الباقية، وهي العزة الحقيقية. **والعزة التي هي للكافرين** هي التعزز، وهي في الحقيقة ذل، كما قال عليه الصلاة والسلام «**كل عز ليس بالله فهو ذل**»(٢).

وتأكيداً لهذا المعنى، علينا – نحن المؤمنين – أن نتذكر الحقائق الآتية، ونؤمن بها إيمان اليقين الذي لا يخالجه شك:

١ – أن الله سبحانه وتعالى جعل العزة بمفهومها السوى السديد – على سبيل الحصر – لله ولرسوله وللمؤمنين.

٢ – وأن الله هو **المعز المذل**، يعز ويذل بمشيئته المطلقة ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)**﴾(٣).

٣ – وأن الإيمان بالله العزيز المعز المذل يلزم المسلم أن يكون أبياً عزيزاً رفيع الرأس لا يتعبد إلا لله، ولا يركع ويسجد ويعنو إلا له، فإذا انفصم عن الإسلام الدين الحق فقد ما يصله بهذا المنبع الثرار، وعاش عبداً ذليلاً لشهواته وهواه – وإن ادعى العزة – فهي في حقيقتها – كما ذكرنا – خليقة منحرفة ممسوخة ليس لها كيان.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٠٥.

(٢) الراغب: المفردات ٣٣٦.

(٣) سورة آل عمران: [٢٦].

ونقيض هذا المعنى الجاهلي الممسوخ المنكود للعزة كما فهمه واعتنقه الكافرون والمنافقون **نرى المفهوم الإيماني للعزة سوياً قويماً لا عوج فيه ولا شذوذ**. فالعزة بالمفهوم الإيماني تعني الشموخ والإباء والترفع عن الدنايا والسمو بالنفس والاعتزاز بالدين والقيم والمثل العليا، وكل أولئك يمثل كبرياء الإيمان «**وكبرياء الإيمان غير كبرياء الطغيان**»، إنها أنفة المؤمن أن يصغر لسلطان، أو يتضع في مكان، أو يكون دنيًّا لإنسان، هي كبرياء فيها من التمرد بقدر ما فيها من الاستكانة، وفيها من التعالي بقدر ما فيها من التضامن، فيها من الترفع على مغريات الأرض ومزاعم الناس وأباطيل الحياة، وفيها الانخفاض إلى خدمة المسلمين والتبسط معهم، واحترام الحق الذي يجمعه بهم، فيها إتيان البيوت من أبوابها، وطلاب العظمة من أصدق سبلها»[1].

والعزة بهذا المفهوم الإيماني الجامع استشعار وسلوك.. خلق وعمل، ومن ثم كان لها مقتضيات ومظاهر تدل عليها. وهذا ما سنعرض له تفصيلا في الفصل التالي.

---

(١) محمد الغزالي: خلق المسلم ٢٠٢.

الفصل الرابع

لمـــن العـــزة ؟؟

العزيز صفة من صفات الله عز وجل وأسمائه الحسني ، قال الزجاج: هو الممتنع فلا يغلبه شيء، وقال غيره هو القوي الغالب كل شيء، وقيل هو الذي ليس كمثله شيء[١]. وقال عبدالله الحليمي: معناه الذي لا يوصل إليه، ولا يمكن إدخال مكروه عليه، فإن العزيز - على لسان العرب - من العزة وهي الصلابة، فإذا قيل لله العزيز فإنما يراد الاعتراف له بالقدم الذي لا يتهيأ معه تغيره عما لم يزل عليه من القدرة والقوة، وذلك عائد إلى تنزيهه عما يجوز على المصنوعين لأعراضهم بالحدوث في أنفسهم للحوادث أن تصيبهم وتغيرهم. قال أبو سليمان معناه: لا يعادله شيء وأنه لا مثيل له[٢].

والعزة إن كانت بمعنى الشدة - وهي القوة - فمعناها يرجع إلى صفة القدرة، وكذلك إن كانت بمعنى الغلبة فمعناها يعود إلى القدرة، و إن كانت بمعنى نفاسة القدر فإنها ترجع إلى استحقاق الذات لتلك العزة [٣].

والله سبحانه وتعالى يمجد نفسه كثيرا بهذه الصفة التي هي اسم من أسمائه الحسنى، عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال قرأ رسول الله ﷺ - على منبره : **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [٤]، فجعل رسول الله ﷺ يقول: **هكذا يمجد نفسه؛ أنا العزيز، أنا الجبار، أنا المتكبر**. فرجف به ﷺ المنبر حتى قلنا لتخرَّن به الأرض [٥].

وعن النبي ﷺ قال: «يقول الله: **العز إزاري ، و الكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدا منهما عذبته**»[٦].

والعزيز من أكثر ما استعمل من أسماء الله الحسنى وصفاته في القرآن الكريم، فقد استعمل فيه اثنتين وثمانين مرة، وقرابة نصفها جاء مقرونا بـ«**الحكيم**» الذي ورد في القرآن إحدي وثمانين مرة. واقترن اسم «العزيز» بصفات وأسماء أخري مثل: **العليم**

---

(١) لسان العرب ٤ / ٢٩٥٢.

(٢) البيهقي : الأسماء والصفات ٣٤ (٣) السابق ١٣٤.

(٤) الزمر ،٦٧ وتتمة الآية **«والسماء مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون»**.

(٥) البيهقي: السابق ٣٤: والحديث أخرجه أحمد في مسنده رقم ٥٤١٤ - ٥ / ٦٠ وقال شاكر: إسناده صحيح.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: باب الكبر ٢٥١ - حديث رقم ٥٥٢، ص ١٩٤ ومسلم بلفظ مقارب : كتاب : البر والصلة والآداب (٤٥) باب تحريم الكبر، حديث ١٣٣ - ٥ / ٤٨٠، وأبو داود: كتاب اللباس : باب ما جاء في إسبال الإزار، حديث ٤٠٩٠ - ٤ / ٥٨، وابن ماجه : كتاب الزهد ٣٧ - باب البراءة من الكبر والتواضع (١٦) حديث ٤١٧٤ - ٣ / ٤٩٣، وأحمد في مسنده: ٧٣٧٦ - ٧ / ١٨٨، ٨٨٨٠ - ٩ / ٣٩، ٩٣٣٠ - ٩ / ١٨٦، ٩٤٧٦ - ٩ / ٢٣٢. قال شاكر: وإسناده صحيح.

والقوي والقوي والحميد والرحيم والكريم والمقتدر والجبار والغفوروالغفار والوهاب(١).

قال ابن الأثير – في أسماء الله تعالي: **الحكم والحكيم** –: هما بمعنى الحاكم، وهو القاضي، أو هو الذي يُحكم الأشياء ويتقنها.. والحكيم ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم(٢).

وقال الحليمي في معنى الحكيم: الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب...

وقال أبو سليمان: الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء.. أي إتقان التدبير فيها وحسن التقدير لها (٣).

* * *

ومن العزة اشتق اسم من أسمائه تعالى على سبيل التعدية وهو **المعز**. والمعز هو الذي يهب العز لمن يشاء من عباده (٤). قال الحليمي: المعز هو الميسر أسباب المنعة، والمذل هو المعرض للهوان والضعة.. وقال أبو سليمان: أعز بالطاعة أولياءه،وأظهرهم على أعدائه في الدنيا وأحلهم دار الكرامة في العقبى، وأذل أهل الكفر في الدنيا بأن ضربهم بالرق والجزية والصغار، وفي الآخرة بالعقوبة والخلود في النار(٥).

فالعزيز ـ اسما من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته تعالى ـ يعني القوة والمنعة والغلبة والعظمة ونفاسة القدر والقدم وانعدام المثيل والشبيه.

وكان أكثر اقتران هذه الصفة في السياقة القرآنية ـ كما ذكرنا – بـ «الحكيم» ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾(٦). وفي هذا الارتباط إيحاء للمخلوقين بألا تكون العزة والقوة والمنعة على حساب الصواب والتدبير والإحسان، وباعثا لنسيان المخلوق خالقه «**المعز المذل**»، فتأخذه العزة بالإثم، ويتبع طريق الظلم والجبروت، وقد ملك من الصفات والآليات ما يمكنه من ذلك.

* * *

(١) يختلف ورود أسماء الله الحسنى وصفاته في القرآن من ناحية الكم، وذلك تبعا للمعنى، واتساقا مع النظم القرآني.
وقد ورد «العزيز» في القرآن ٨٢ مرة، وبعض الأسماء والصفات مرة واحدة مثل: المصور، الجبار، المتكبر، السلام، الفتاح . ومنها ما ورد مرتين مثل : البارئ والمجيد، و ثلاث مرات مثل : الوهاب. وعشر مرات مثل الرءوف، وخمسا وأربعين مرة مثل: الخبير، وورد: الرحيم ٩٤ مرة . والعليم ١٤٠ مرة.

(٢) لسان العرب ٢/ ٩٥١.

(٣) البيهقي السابق ٢٢.

(٤) لسان العرب ٤/ ٢٩٥٢.

(٥) البيهقي السابق ٧٨.

(٦) السجدة ٧.

وقد خص الله - سبحانه وتعالى - نفسه «بالعزة» في أربع آيات: ثلاث مكية والرابعة مدنية وهي:

١- ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾(١).

٢- ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(٢).

٣- ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٣).

٤- ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾(٤).

وهذه الآيات كلها تلتقي على معنى أساسي واحد - كما ذكرنا - وهو اختصاص الله - سبحانه وتعالى - بالعزة «جميعا»، أي بكل جوانبها وملامحها من قوة ومنعة وفضل ورفعة قدر وغلبة وهيمنة.

وهو «**رب العزة**» المتصف المختص بها، والمالك زمامها يصرِّفها، ويكسبها من يشاء لأنه المعز المذل ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥).

فإذا كان الله سبحانه و تعالى هو القوي العزيز المعز المذل مالك الدنيا والآخرة، وخالق الخلق ورازقهم ومميتهم ومحييهم، كان من المنطقي أن **تُبتغى عنده العزة وهو ربها**. وكان من الحماقة أن يتخذ المنافقون من الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء وأنصارا، متجاوزين ولاية المؤمنين وتاركيها إلى ولايتهم ومما لأتهم عليهم؛ لاعتقادهم أن الدولة ستكون لهم، فيجعلون لهم يدا عندهم.

إن الله سبحانه وتعالى يقرعهم بهذا الاستفهام التوبيخي «**أيبتغون عندهم العزة؟**»، إن كانوا يبتغون ذلك فإن العزة لله جميعا فهو يؤتيها من يشاء، فكان عليهم أن يطلبوها بصدق الإيمان، والسير على سننه تعالى، واتباع هداية وحيه الذي يرشدهم إلى طرقها ويبين أسبابها (٦).

---

(١) سورة فاطر الآية ١٠.
(٢) سورة يونس: الآية ٦٥.
(٣) سورة الصافات الآية ١٨٠.
(٤) سورة النساء الآية ١٣٩.
(٥) سورة آل عمران الآية ٢٦.
(٦) تفسير المنار ٥/٤٦٣.

وعن أبي ريحانة قال قال رسول الله ﷺ «من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزا وكرما فهو عاشرهم في النار» (١). فمما يلحق بطلب العزة عند الكفار وولايتهم من دون المؤمنين الاعتزاز بالآباء، والأجداد الذين ماتوا على الكفر، واعتقاد أن بينهم وبين الجيل المسلم نسبا وقرابة، كما يعتز ناس بالفراعنة والأشوريين والفينيقيين والبابليين وعرب الجاهلية اعتزازا جاهليا وحمية جاهلية.. ذلك أن آحذة التجمع في الإسلام هي **العقيدة**، وأن الأمة في الإسلام **هي المؤمنون بالله** منذ فجر التاريخ في كل أرض وفي كل جيل. وليس الأمة مجموعة الأجيال من القدم، ولا المتجمعين في حيز من الأرض في جيل من الأجيال (٢).

وقال تعالي: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)**﴾ (٣).

أي لم يذل فيحتاج إلى ناصر، أو لم يُوال أحدا من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته. فهو سبحانه وتعالى لاولد له. ردا على اليهود الذين زعموا أن «عزير» ابن الله، وعلى النصارى الذين زعموا أن عيسى ابن الله، وعلى العرب الذين زعموا أن الملائكة ذرية الله.

وهو واحد لا شريك له في ملكه ولافي عبادته **«ولم يكن له ولي من الذل»**؛ أي لم يحالف أحدا، ولا ابتغي نصر أحد، أي لم يكن له ناصر يجيره من الذل، فيكون مدافعا، أو كما قال الحسن بن الفضل: لم يُذَلّ فيحتاج إلى ولي ولا ناصر لعزته وكبريائه. وكان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبدالمطلب علمه هذه الآية (٤). وهو - عليه الصلاة والسلام - كان يسميها آية العز، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله ﷺ أنه قال **«آية العز: الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا.. الآية»** (٥).

* * *

وعلي مدار التاريخ سقط **«أصحاب العزة»** المدعاة.. العزة المنحرفة التي سلكت سبيل

---

(١) أخرجه الإمام احمد في مسنده. حديث رقم ١٧١٤٦ - ١٣ / ٣٠٢. وقد انفرد به أحمد وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد. وانظر ابن كثير ٢ / ٢٦٩.

(٢) في ظلال القرآن ٢ / ٧٨٠.

(٣) سورة الإسراء الآية ١١١. (٤) القرطبي ٥ / ٣٩٦١.

(٥) مسند أحمد، حديث ١٥٥٧١ - ١٢ / ٢٥٤.

وذكر المحقق أن إسناده ضعيف، وأشار الهيثمي ٧ / ٥٢ إلى أن له طرقا صالحة.

الشيطان، وسقط من حاولوا الاحتماء واللياذ بها واستنصارها من الأشياع والأتباع:

ففرعون الذي طغى وتجبر وحشر قومه ﴿ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ** ﴾ (١). و﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي** ﴾ (٢)، كانت النتيجة كما قال تعالى: ﴿ **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ** ﴾(٣).

فجمع الله سبحانه و تعالى عليهم عذاب الدنيا والآخرة ولعنة تلاحقهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أما السحرة الذين غشهم الاستعلاء الفرعوني الموكوس، وأُخذوا ببهرج سلطان هذا الغوي، فاعتصموا به، ﴿ **وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ۝٤٤** ﴾(٤) فأصاخوا للحق بعد أن تبين لهم ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝٤٨** ﴾(٥).

وانتصر صوت العزة الإلهية ﴿ **لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ۝٦٨** ﴾(٦) على صوت الاستعلاء الكاذب والعزة الإبليسية على لسان فرعون ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤** ﴾(٧).

* * *

والمنافقون الذين اتخذوا من الكافرين أولياء يبتغون عنده العزة كان لهم وللكافرين الخزى والانكسار في الدنيا، وفي الآخرة لهم عذاب أليم. ومن هؤلاء صاحب المنطق المعسول، وهو في الحقيقة فاسد ألدّ في خصامه، رافض لمنطق العقل والدين، تأخذه العزة بالإثم ﴿ **فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝٢٠٦** ﴾(٨).

ويرجع سقوط هذه النماذج البشرية الشاذة – وهى على مدار التاريخ أكثر من أن تحصى – إلى أن هؤلاء الأدعياء ابتغوا العزة من غير مصدرها الصافى النقى، ومنبعها الإلهى الثرار الأصيل، فلله العزة جميعا، وهو العزيز المعز المذل، هذا المنبع الإلهى هو المنبع الباقى الخالد الذى لا ينفد، ولا يأْسَنُ ولا يبلى.

كما أنهم لم يقفوا بالعزة – بما تحمله من معنى الأنفة والإباء والمنعة والقوة – **عند مفهومها الإنسانى العام،** وحَدِّها الأخلاقى المعقول، ولكن ساروا بها في طريق الإسراف

(١) سورة النجم الآية ٢٤.
(٢) سورة القصص : الآية ٣٨.
(٣) سورة القصص الآية : ٤٠ - ٤٢.
(٤) سورة الشعراء: [٤٤].
(٥) سورة الشعراء: [٤٦-٤٨].
(٦) سورة طه : [٦٨].
(٧) سورة النازعات: [٢٤].
(٨) سورة البقرة: [٢٠٦].

العـاتي، والغلوّ الطائش، فـأخـذت طوابع الغـرور والأثـرة والعـدوان - لا على عـبـاد الله فحسب - ولكن على الدين والقيـم كـذلك، وبذلك انحرف مفهومها شعورا وأخلاقا وسلوكا.

ويُستأنس لهذا التعليل بأن ذكْر اختصاص الله سبحانه وتعالى بالعزة يأتى في سياق عرض خطايا الكفار والمنافقين وضـلالهم وتقـولهـم على النبى ﷺ مـذكـورا صـراحـة أو ضـمنا، ويثبِّت الله سبـحـانه وتعـالى نبـيـه ﷺ، فـيطلـب منه ألا تـذهـب نفـسـه عليـهـم حسرات، ولا يحزنه قولهم الغالط المنكوس في الإسلام ونبيه، وتنزيه الله عـمـا يصفـون بأن له ولدا. وكل هذه الأقـوال الكافـرة الفـاجـرة نابعـة من حـمـيـة الجـاهـليـة أو **«العزة المنحرفة»**، أما العزة الحقيـقـيـة المطلقة فى أسـمى معانيها وأكملها فـهى لله جـمـيعًا، ولا يستطيع العبد أن ينهل من هذا المعين الغنى الثرار إلا بالإيمان والطاعة والامتثال الكامل. ومن ثم كانت العزة بعد الله: **لرسوله وللمؤمنين.**

* * *

لقـد أكـرم الله - سـبـحـانه وتعـالى - نبـيـه مـحـمـدا ﷺ باخـتـيـاره لأداء الرسـالـة الخاتمة، وأثنى عليـه في بيـان مـهـامـه في دعوته فـجـعـله كـالسـراج المنير في إضـاءة طريق الهـدى للعباد ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً** ﴿٤٥﴾ **وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً** ﴿٤٦﴾ ﴾[1] وقـال تعـالى: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٢٨﴾ ﴾[2].

ومن تكـريم الله له أنه جـمـع بين محـبـة العبـاد له سبحانه، ومحبته لنبيه ﷺ، ولا يكـون الإيمان إلا إذا تحققت هذه المحبة في صورتها المثلى مقدَّمة على حبهم لغيرهما: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴿٢٤﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الأحزاب: [٤٥-٤٦].

(٢) سورة التوبة: [١٢٨]. وارجع إلى «الشفا» للقاضي عياض، في الأسماء التى شرف الله بها نبيه محمداً ﷺ - ١/٤٥٨-٤٧٧.

(٣) سورة التوبة: [٢٤].

وشرفه الله كذلك بإضافته إلى نفسه – جل وعلا – في عشرات من الآيات(1)، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12)﴾(2).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52)﴾(3).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (4).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (5).

وفي عدد آخر من الآيات يشرف الله المؤمنين بضمهم إلى جانبه كذلك مع رسوله، كما في قوله تعالى﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ(56)﴾ (6).

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(7).

فالله سبحانه وتعالى يضم رسوله والمؤمنين إلى جانبه ويضفي عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله، وأى تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسوله والمؤمنين معه إلى جواره! وصدق الله فجعل العزة صنو الإيمان في قلب المؤمن، العزة المستمدة من عزته تعالى، العزة التي لا تهون ولا تهن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات، إلا أن يتضعضع فيه الإيمان، فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة(8).

وكما كانت العزة صنو الإيمان جعل الله الذلة صنو الكفر ومخالفة الله ورسوله. قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20)﴾(9)، فهم في الأذلاء ولا أذل منهم(10)، أو كما يقول الفخر الرازي: أي في جملة من هو أذل خلق الله؛ لأن ذل

---

(1) وجاءت الإضافة إلى ضمير الجمع أربع مرات، والإضافة إلى الهاء أربعا وثمانين مرة. هذا غير الإضافة إلى اسمه (الأعظم) سبحانه وتعالى (رسول الله ....).

(2) سورة التغابن: [12].

(3) سورة النور: [52].

(4) سورة المجادلة: [5]

(5) سورة الصف: [9]. وفي آيات أخرى يطرد مثل هذا الاستعمال مع (عبد): عبده، عبدنا مما سنعرض له في فصل قادم

(6) سورة المائدة: [55-56].

(7) سورة التوبة: [105]

(8) في ظلال القرآن 6/ 3580.

(9) سورة المجادلة: [20].

(10) القرطبى 8/ 6476.

أحد الخصمين على حسب عز الخصم الثاني، فلما كانت عزة الله غير متناهية كانت ذلة من ينازعه غير متناهية أيضًا(١). وصدق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حين خاطب المسلمين قائلاً: «**لقد أعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله**»(٢).

* * *

ومن مقتضيات هذه العزة الإلهية:

أن يعيش المسلم أبيًا شامخًا بإيمانه لا يذل ولا يهون، ولا يطأطئ رأسه ولا يقنط، فلا يأخذ اليأس والحزن والإحباط إلى نفسه سبيلا، وذلك استجابة لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴿١٣٩﴾﴾(٣).

أخرج الواحدى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد، فبينما هم كذلك أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «**اللهم لا يعلون علينا، اللهم لا قوة لنا إلا بك، اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر**»، فأنزل الله هذه الآية، وثاب نفر من المسلمين رماة، فصعدوا الجبل، ورموا خيل المشركين حتى هزموهم(٤).

وحكى القرطبى أنهم لم يخرجوا بعد ذلك - أى بعد أحد- عسكرًا إلا ظفروا في كل عسكر كان في عهد رسول الله ﷺ، وفي كل عسكر كان بعده، وكان فيه واحد من الصحابة كان الظفر لهم(٥).

ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالمناسبة لا تحجب حقيقة واضحة وهي أن الآية جاءت نهيا موجهًا للمؤمنين -في كل زمان ومكان- عن الهوان والفشل والذلة والاستسلام للحزن والقنوط. وهذا النهي يحمل أمرًا ضمنيًا **بالعزة والاستعلاء والتفتح للحياة بالأمل لأنهم «الأعلون»**، وفي ذلك ما فيه من «بيان فضل هذه الأمة لأن الله سبحانه وتعالى خاطبهم بما خاطب به أنبياءه إذ قال لموسى «**إنك أنت الأعلى**»، وقال لهذه الأمة «**وأنتم الأعلون**»، وهذه اللفظة مشتقة من اسمه «**الأعلى**»، فهو سبحانه «العلي»، وقال للمؤمنين «**وأنتم الأعلون**»(٦).

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ١٢٠.
(٢) الطنطاويان: سيرة عمر بن الخطاب ٥٧٠.
(٣) سورة آل عمران: [١٣٩].
(٤) أسباب النزول ١٠٦.
(٥) القرطبي ٢/١٤٥٩.
(٦) السابق، نفس الصفحة.

والاستجابة لهذا النهي الصريح، وذاك الأمر الضمني إنما هي استجابة لمنطق الإيمان، ويكون الإيمان الحقيقي شرطًا لذلك أى «**إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا**»، فإن الإيمان يوجب قوة القلب ومزيد الثقة بالله تعالى، وعدم المبالاة بأعدائه(١).

والمؤمنون هم الأعلون، فارتباطًا بسبب النزول، وإعمالاً **لمعيار الكم** نجدهم قد أصابوا من الكفار يوم بدر أكثر مما أصاب منهم الكفار يوم أحد، وإعمالاً لمعيار الكيف - وهو المعيار الممتد الباقي - كانوا وما زالوا هم الأعلى شأنا لأن قتالهم لله ولإعلاء كلمته. أما قتال أعدائهم فللشيطان، ولإعلاء كلمة الكفر، ولأن قتلى المؤمنين في الجنة وقتلى الكافرين في النار(٢).

فالمسلمون هم الأعلون اعتقاداً وتصوراً للحياة وارتباطًا وصلة بالعلي الأعلى، وهم الأعلون شعوراً وخلقًا وسلوكًا، ثم هم الأعلون قوة ومكانة ونصرة، فمعهم القوة الكبرى قوة الله سبحانه وتعالى(٣).

ويؤكد الله سبحانه وتعالى هذا المعنى لأصحاب العزة والاستعلاء الإيمانى بألا يهنوا، ببيان أن من أبشع مظاهر الهوان والفشل أن يسعى المؤمنون - وهم الأعلون، والله معهم - إلى مسالمة الأعداء والصلح الذليل معهم ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾.(٤)

* * *

ومن مقتضيات عزة المسلم في وجهها السلوكي ما نجده في قوله تعالى **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾**(٥).

قال ابن كثير: «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» هذه صفات المؤمنين الكُمّل؛ أن يكون أحدهم **متواضعًا لأخيه ووليه متعززًا على خصمه وعدوه**، كما قال تعالى: **﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾**(٦).

---

(١) الألوسي: روح المعاني ٣/١٠٥.
(٢) انظر الزمخشري ١/٤٦٥.
(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٣٠٢.
(٤) سورة محمد: [٣٥] - يتركم اعمالهم: ينقصكم ثوابها.
(٥) سورة المائدة: [٥٤].
(٦) سورة الفتح: [٢٩].

وفي صفة النبي ﷺ أنه «الضحوك القتال»؛ فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه(١).

* * *

ومن مقتضيات العزة: رفض الظلم والخنا والاستسلام لذوي الجبروت والطغيان، فإذا لم يستطع المسلم أن يقاوم الطاغوت، ويتصدى للظالم فلا أقل من أن يهجر أرض الظلم والجبرية، وإلا كان مثواه النار كظالمه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً** (٩٧)﴾(٢).

وما ذلك إلا لأن الاستسلام للظلم دليل على ضعف الإيمان وضعف الثقة بالله الذي جعل نصر المؤمنين على أعدائه حقا عليه. وفي الظلم عدوان على الإنسان وانتهاك لكرامته وحقوقه، وحرمان له من النعم المعنوية التي خلقها له مثل الحرية والطمأنينة والعدل والأمن.

وكان رسول الله ﷺ يأبى أن ينزل ظلم بإنسان أيا كان دينه أو معتقده، وكانت هذه خليقة فيه ﷺ قبل أن يبعث، فشهد في دار عبد الله بن جدعان حلفاً تداعت إليه قبائل من قريش.. فتعاقدوا وتعاهدوا على **ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته.**

وقد روي عن رسول الله ﷺ بعد أن بعث نبياً ورسولاً قوله: **لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**(٣).

* * *

ومن هذه المقتضيات: الاعتزاز بالقدرات والإمكانات الذاتية وإبرازها وتوظيفها عند الحاجة، فهو من قبيل ما يسميه علماء النفس **«اعتبار الذات»**، ولا يكون ذلك من قبيل الغرور أو الكبر ما حسنت النية، وكان القصد وجه الله والمصلحة العامة.

وفي يوم أحد عرض النبي ﷺ سيفاً، وسأل أصحابه: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ وحقه **أن يضرب به العدو، ولا يقتل به مسلما، ولا يغرّبه**(٤) **من كافر؟! فنهض إليه أبو**

---

(١) ابن كثير: ٣/٨٤.

(٢) سورة النساء: [٩٧].

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ١/١٣٣ – ١٣٤.

(٤) أي لا يبعده عن كافر، بل يداوم الضرب به.

دجانة[١]، ولبس مشهَّرَة فأعْلَمَ بها[٢]، وكان قومه يعلمون – لما بلوْا منه – أنه إذا لبس هذه المشهرة لم يبق في نفسه غاية. فخرج يمشي في الصفين، واختال في مشيته، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: **إن هذه لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن.**

وأعطى أبو دجانة السيف حقه، فما قاتل أحد أفضل من قتاله، لقد كان يضرب به حتى إذا كلَّ عليه شحذه على الحجارة، ثم يضرب به العدو حتى رده كأنه منجل[٣].

وبعد مضي سنة على صلح الحديبية الذي عقد أواخر سنة ست من الهجرة حق للمسلمين أن يعودوا إلى مكة ليؤدوا مناسك العمرة[٤]... وأحب أهل مكة أن يعزوا أنفسهم وهم يجلون عنها – وفق الاتفاق المبرم – ليدخلها النبي والمسلمون معتمرين، فأشاعوا أن المسلمين يعانون عسرا وجهدا[٥]. قال ابن عباس: صفّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع[٦] بردائه، وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: «**رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة**»، ثم استلم الركن، وخرج يهرول، ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واراه البيت منهم، واستلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف، ومشى سائرها، فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم (أي ليست سنّة عامة)، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قريش للذي بلغه عنهم، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها، فمضت السنّة بها[٧].

وبهذا الاستعلاء الإيمانى تحطمت كبرياء قريش، وما أشاعته عن المسلمين من أنهم **قتلتهم حمى المدينة**. وزيادة في النكاية بهذه الكبرياء الجاهلية الممسوخة كان **عبد الله ابن رواحة**[٨] ينشد، وهو آخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ، وهو يدخل مكة:

---

(١) أبو دجانة الأنصارى الساعدي اسمه «سماك بن خرشة» شهد بدرا مع رسول الله ﷺ، ودافع عنه يوم أحد ببسالة حتى كثرت فيه الجراحة. وقاتل ببطولة يوم اليمامة حتى استشهد.
(انظر: الاستيعاب لابن عبد البر، بهامش الإصابة لابن حجر ٤/٥٩).

(٢) المشهرة: عصابة أو ما شابهها ذات لون يميز صاحبها عن غيره. وأعلم بها أى تميز بها. ويقال إنها كانت عصابة حمراء.

(٣) المقريزي: إمتاع الأسماع ١٤٥.

(٤) وهى تسمى عمرة القضاء أو عمرة القصاص.

(٥) محمد الغزالي: فقه السيرة ٢٧٦. والعسر والجهد أى المرض والضعف بسبب رطوبة المدينة.

(٦) اضطبع بردائه: أدخل بعضه تحت عضده اليمنى، وجعل طرفه على منكبه الأيسر.

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٧١.

(٨) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، شهد بدرا وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة. كان عظيم القدر في الجاهلية والإسلام. قال عنه رسول الله ﷺ «نعم الرجل عبد الله بن رواحة.. إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة». وشهد عليه السلام لشعره، ووصفه بأنه أشد على الكفار من وقع النبل.
[انظر ترجمته رقم ٤٦٧٦ في الإصابة لابن حجر ٢/٣٠٦].

خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله ... أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله[1]
ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[2]

فإظهار القدرة الذاتية أمام الأعداء بخاصة يزرع الرهبة في قلوبهم، ويمنح المسلمين مزيداً من الثقة بالنفس واعتبار الذات.

يستدل على ذلك بهدي النبي ﷺ في فتح مكة: فقبل دخولها نزل بمر الظهران، ومعه عشرة آلاف من المسلمين، وأمر أن يوقد كل منهم ناراً حتى تتوهم قريش أن عدد المسلمين أضعاف واقعهم، إذ جرت العادة أن كل مجموعة – لا كل واحد – توقد ناراً. ولما دخل **أبو سفيان بن حرب** – وقد أجاره العباس – خيمة رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه، وذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عباس، **احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل**[3] حتى تمر به جنود الله فيراها. وعرضت جيوش رسول الله ﷺ أمام أبي سفيان قبيلة قبيلة كان خاتمتها الكتيبة الخضراء وعلى رأسها رسول الله ﷺ فيهم المهاجرون والأنصار لا يُرى منهم إلا الحدق من الحديد.

وأخذت الرهبة أبا سفيان، وقال للعباس: «ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة». وانطلق يصرخ في قريش: هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به[4].

قال ابن القيم: وفيه جواز استحباب إظهار كثرة المسلمين وقوتهم وشوكتهم وهيئتهم لرسل العدوا إذا جاءوا إلى الإمام كما يفعل ملوك الإسلام، فقد عرضت على أبي سفيان عساكر الإسلام وعصابة التوحيد وجند الله، وعرضت عليه كتيبة رسول الله ﷺ وهم في السلاح لا يرى منهم إلا الحدق، ثم أرسله فأخبر قريشاً بما رأى[5].

---

(١) أى نحن نقاتلكم على تأويله، كما قتلناكم على إنكار تنزيله.

(٢) ابن هشام، السابق نفس الصفحة.

(٣) نتوء في الجبل يضيق به الوادي.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٠٤.
والحدق: العيون – لا قبل لكم به: لا تستطيعون مواجهته.

(٥) زاد المعاد ٢/١٦٧. ويذكرنا ذلك بما رآه عمر رضى الله عنه من معاوية بن أبي سفيان واليه على الشام من استقبال عمر عند زيارته للشام بموكب عسكري فخم ضخم، فلما اعترض عمر على هذا المظهر علل معاوية عمله هذا بأن المسلمين في بلاد للأعداء بها عيون، وهم تأخذهم الرهبة من هذه المظاهر «فكان جواب عمر: إن كنت صادقا فهو رأي لبيب، وإن كنت كاذبا فإنها خدعة أريب. لا آمرك ولا أنهاك». ومعنى هذا أن عمر يفوض الرأي لعامله لكي يتصرف في مواجهة الظروف بما يقتضيه الموقف، وهذا يعرف في القوانين الحديثة «بالسلطة التقديرية» [انظر للدكتور سليمان الطماوي: عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة ٣٠٠].

وعلى هذا الاعتبار يكون السعي للإمارة[١] من هذا القبيل الذي لا حرمة فيه بشرطين:

١ - أن يتوافر في الساعي إلى الإمارة من الصفات والقدرات ما يؤهله لذلك وإلا كانت من قبيل «توسيد الأمر غير أهله».

٢ - أن يقصد بسعيه وإمارته وجه الله وتحقيق الصالح العام.

وقد طلبها يوسف عليه السلام حين خرج من السجن، ورأى الملك من قدراته ما رأى ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)﴾[٢].

وهو بذلك يعتز بقدرتين فيه: الأولى: القدرة على حفظ المال ورعايته بأمانة وإخلاص. والثانية: العلم والبصيرة بما يحفظ، والتصرف فيه على أسس دقيقة بلا تفريط وبلا إهدار.

قال ابن كثير: مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة[٣]. ولم يكن يوسف يطلب لشخصه، وهو يرى إقبال الملك عليه، فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض، إنما كان حصيفاً في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة ليكون مسئولا عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات لا زرع فيها ولا ضرع[٤].

* * *

والتطلع للإمارة والاستشراف لها بالشرطين اللذين ذكرناهما آنفاً له سوابق في حياة المسلمين، من ذلك أن **أهل نجران** حينما وفدوا على المدينة قال لهم النبي ﷺ: **«لأبعثن إليكم رجلاً أمينا حق أمين»**، فاستشرف لها الناس، فبعث أبا عبيدة[٥].

* * *

ومن مقتضيات عزة المسلم: طاعة أمر الله، وأخذ النفس قولاً وعملا، بقاعدة الأمر

---

(١) نقصد الإمارة بمفهومها الواسع، وتصدق على الوظائف الرياسية كمنصب الولاة، والمحافظين، وأمراء الاقاليم، ورؤساء الإدارات.... إلخ.

(٢) سورة يوسف: [٥٥].

(٣) ابن كثير: ٤ / ١٧٥.

(٤) في ظلال القرآن: ٤ / ٢٠٠٥.

(٥) هو عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري، شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. قال رسول الله ﷺ: لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح. مات في الثامنة والخمسين من عمره في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ بالاردن بالشام، وبها قبره.
[انظر الاستيعاب: ٤ / ١٢١].

بالمعروف والنهى عن المنكر دون خوف من الناس.

عن أبي سعيد الخدرى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **لا يحقر أحدكم نفسه، قالوا يا رسول الله ﷺ، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمر الله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى**(١).

إن هذا الإغفال أو السكوت عن الحق خوفا من الناس هو لون من «**تحقير الذات**» الذي يتعارض مع عزة المسلم واستعلائه بالإيمان لأنه إلغاء إرادي «**للشخصية الفاعلة**».. الشخصية التي أكرمها الله، وأعزها بالإسلام، وذلك بتخليها الإرادي عن القيام بدورها الإيجابي الناشط في الحياة، وبذلك تنتشر المعاصي، ويعم البلاء، وينهار المجتمع. عن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «**ما من قوم يُعمَل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب**»(٢).

والخشية لا تكون إلا لله تعالى، وهذا ما وجه الله سبحانه وتعالى المؤمنين إليه في آيات متعددة، منها قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ**﴾(٣).

ويستجيب المؤمنون، ويأتي التهديد من قبل الكفار ومن يستهولون قوتهم وعددهم وعديدهم، فلا يهتزون لما يسمعون بل يزيد ذلك من إيمانهم وثقتهم بالله الذي منه يستمدون القوة والعزة ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)**﴾(٤).

* * *

ومن مقتضيات العزة واحترام الذات اعتماد المسلم على نفسه في كسب رزقه بالعمل والسعي في الأرض. وقد تحدثنا من قبل عن قيمة العمل في الإسلام، ونهي النبي ﷺ عن أن يذل المؤمن نفسه بالسؤال والاعتماد على الصدقات في معاشه، فهو تعطيل

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح حديث ١٠٩٥٩ - ١٠/١٧، وابن ماجة فى كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حديث ٤٠٠٨ - ٣/٤٢١.

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح: حديث ١٩١٢٧ - ١٤/٤١٧. وابن ماجة في كتاب الفتن. باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. حديث ٤٠٠٩ - ٣/٤٢١. وأبو داود بلفظ قريب من هذا: كتاب الملاحم باب الأمر والنهي: حديث ٤٣٣٨ - ٤/١٢٠.

(٣) سورة المائدة: [٣].

(٤) سورة آل عمران: [١٧٣].

إرادي للقـدرة وذلك بادعـاء التـوكل على الله الرازق المنعم، ومـا هو بالتـوكل ولكنه التواكل الذميم المرفوض(١).

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على **أهل الصفة**، وهم فقراء من المسلمين أرصدوا لتعلم القرآن والخروج مع السرايا للجهاد في سبيل الله بأنهم ﴿ **يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** ﴾(٢).

وهم فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم، كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ فقراء، وما لهم أهل ولا مال، فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله ﷺ .. **وكانوا في مسجد رسول الله ﷺ ضرورة، وأكلوا من الصدقة ضرورة، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال، وخرجوا، ثم ملكوا وتأمروا**(٣).

ولم يكن في الصحابة – لا أهل الصفة ولا غيرهم – من يتخذ مسألة الناس والإلحاف في المسألة بالكدية والمشاحذة لا بالزنبيل ولا غيره صناعة وحرفة بحيث لا يبتغي الرزق إلا بذلك(٤). وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى فتى فأعجبه حاله سأل عنه: هل له حرفة؟ فإن قيل لا، سقط من عينه(٥).

ويرتبط بهذه السمة **ترفع المؤمن عما يسميه الفقهاء «خوارم المروءة»**(٦). والمروءة من لوازم قبول الشهادة، فيشترط في الشاهد – فوق اجتناب الكبائر، وعدم الإصرار على الصغائر – : الترفع عن ارتكاب الأمور الدنيئة المزرية بالمرء، وإن لم تكن حراما، وهي كل ما يذم فاعله عرفاً من أمثاله في زمانه ومكانه؛ لأن الأمور العرفية قلما تنضبط، بل تختلف باختلاف الأشخاص والأزمنة والمكان.

ومن خوارم المروءة الأكل في السوق والطريق، وكشف ما جرت العادة بتغطيته من بدنه، والتبول في الطريق دون ضرورة، ومد رجله عند الناس، وسماع الغناء وآلات اللهو واللعب بالشطرنج والنرد، واللعب بالحمام والديوك(٧).

(١) انظر الفصل الثاني من هذا البحث.
(٢) سورة البقرة: [٢٧٣]. (٣) القرطبي: ٢/١١٤٨.
(٤) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل: ١/٣٩.
(٥) ابن الجوزي: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٢٠٦.
(٦) الخوارم: جمع خارم من خرم الشيء إذا شقه وقطعه. والخوارم ما ينقص به الشيء. والمروءة مصدر مرؤ: وهي صفة نفسية تحمل الإنسان على الأخذ بحميد الأخلاق وترك رديئها. [معجم لغة الفقهاء ١٧٩، ٣٩٢].
(٧) انظر الموسوعة الفقهية (الكويت): ٣٧/٣٣ – ٣٤.
وعبد الرحمن العتر: معالم السنة النبوية: ١٣٥ – ١٣٦.

الفصل الخامس

العبـودية .. العـزة

العبودية : هي الخضوع والتذلل، والعبد هو المملوك ، خلاف الحر، والجمع أعبُد وعبيد (١).

ويقال فلان عبد بيِّن العُبودة والعبودية والعبْدية، وفي حديث أبي هريرة « **لا يقلْ أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي** » (٢). وهذا على نفي الاستكبار عليهم، وأن ينسب عبوديتهم إليه، فإن المستحق لذلك الله تعالى هو رب العباد كلهم و العبيد .

وتعبد الرجلَ وعبَّدَه وأعْبَدَهُ: صيره كالعبد، وتعبّد اللهُ العبْدَ بالطاعة أي استعبده(٣).

والعبد : الإنسان حرا كان أو رقيقا، يذهب بذلك إلى أنه مربوب لباريه جل وعز(٤).

* * *

وللراغب الأصفاني تقسيم مفصل للعبودية يربطه بالسجود حتى أن المعنيين يتقاربان لينتجا معنى واحدا:

فالسجود : أصله التطامن والتذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته، وهو عام في الإنسان والحيوانات، والجمادات (٥). **والسجود ضربان**:

١ـ السجود باختيار: وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يستحق الثواب نحو قوله تعالى ﴿ **فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا** ﴾(٦). أي تزللوا له .

٢ ـ سجود تسخير وهو للإنسان والحيوانات والنبات، وعلي ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** ﴾(٧) وقوله: ﴿ **يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ** ﴾(٨) فهذا سجود تسخير، وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة، وأنهاخلق فاعل حكيم.

وقوله :﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾(٩) ينطوي على النوعين من السجود والتسخير والاختيار: وقوله:﴿ **وَالنَّجْمُ**

(١) لسان العرب ٤ / ٤٧٧٦ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود. وسبق ذكر ذلك في الفصل السابق من هذا البحث.

(٣) اللسان ٤ / ٤٧٧٧ . (٤) السابق ٤ / ٤٧٧٦ .

(٥) الراغب: المفردات ٢٢٩ . (٦) سورة النجم: [الآية ٦٢].

(٧) سورة الرعد: [الآية ١٥]. (٨) سورة النحل: [الآية ٤٨].

(٩) سورة النحل: [الآية ٤٩].

وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ (١) فذلك على سبيل التسخير (٢).

والعبودية . . كما يذكر الراغب - إظهار التذلل .

والعبادة: أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل ، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى، ولهذا قال﴿ . .**أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾(٣) والعبادة - كالسجود ضربان :

١ - عبادة بالتسخير .

٢ - وعبادة بالاختيار، وهي لذوي النطق وهي المأمور بها في نحو قوله ﴿ . .**وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ** ﴾(٤) و﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ** ﴾(٥).

ومن استقراء الآيات القرآنية يخرج الراغب **بأربعة أضرب للعبد هي :**

١ - عبد بحكم الشرع: وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه نحو ﴿ **وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ** ﴾(٦) و﴿ **عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ** ﴾(٧).

٢ - عبد بالايجاد: وذلك ليس إلا لله، وإياه قصد بقوله تعالى: ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾ (٨).

٣- عبد بالعبادة والخدمة: والناس في هذا ضربان:

أ - عبد لله مخلصا: وهو المقصود بقوله ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ** ﴾(٩) و﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا** ﴾(١٠).

ب - وعبد للدنيا وأعراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها ، وإياه قصد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: **«تعس عبدالدرهم ، تعس عبد الدينار»**(١١).

---

(١) سورة الرحمن : [الآية ٦].

(٢) الراغب السابق نفس الصفحة .

(٣) سورة يوسف : [الآية ٤٠].

(٤) سورة الحج: [الآية ٧٦].

(٥) سورة النساء: [الآية ٣٦].

(٦) سورة البقرة : [الآية ١٧٨].

(٧) سورة النحل: [الآية ٧٥].

(٨) سورة مريم : [الآية ٩٣].

(٩) سورة ص : [الآية ٤١].

(١٠) سورة الفرقان: [الآية ٦٣].

(١١) ونص الحديث عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، أن اعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه. إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة . إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع».

(أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير (٥٦) باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٧٠) حديث ٢٨٨٧- فتح الباري ٦/ ٩٥. وابن ماجه كتاب الفتن (٣٧) باب المكثرين (٨) الحديثان ٤١٣٥- ٤١٣٦ - ٣/ ٤٨٠. وذكر المحقق أن في إسناده إسحاق بن إبراهيم بن سعيد المدني ضعيف. وانظر كذلك: العبودية لابن تيمية ١٠٢ - ١٠٤.

وعلى هذا النحو يصح أن يقال: ليس كل إنسان عبدا لله، فإن العبد على هذا بمعنى العابد، لكن العبد أبلغ من العابد، والناس كلهم عباد الله بل الأشياء كلها كذلك لكن بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار (١).

ويفرق الراغب بين العبيد والعباد: **فالعبيد** جمع العبد الذين هو مسترق. **والعباد** جمع العبد الذي هو العابد، فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد، ولهذا قال ﴿**وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾(٢)، فنبه أنه لا يظلم من يختص بعبادته، ومن انتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس وعبداللات ونحو ذلك(٣).

وقريب من هذا ما يراه محمد عبده من أن استقراء آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد وما يماثلها ويقاربها في المعنى - كخضع وخنع وأطاع وذل - نجد أنه لا شئ من هذه الألفاظ يضاهي (عبد)، ويحل محلها، ويقع موقعها، ولذلك قالوا: إن لفظ العباد مأخوذ من العبادة، فتكثر إضافته إلى الله تعالى. ولفظ (العبيد) تكثر إضافته إلى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى: **فالعبادة**: ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية، ناشئ من استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها(٤).

* * *

والعبودية عبوديتان:

الأولى هي العبودية الخافضة ولصاحبها.. التي تنحط به إلى مستوى الأشياء. وهي نوعان:

العبودية المادية التي يكون فيها الإنسان شيئا مملوكا للآخرين يتصرفون فيه تصرفا مطلقا بيعا وشراء واستغلالا وقتلا.. كما رأينا في استقرائنا لمركز الرقيق قبل بعثة النبي ﷺ وإشراق نور الإسلام:

وهناك العبودية المعنوية التي لا يكون الإنسان معها مملوكا للآخرين.. ولكن يكون عبدا لشهواته الدنيا وملاذّه وهواه بلا قيود وضوابط، ودون رعاية لخلق أو قيم أو دين، ودون إعماله للعقل والضمير والبصيرة.

(١) الراغب السابق ٣٢٢.
(٢) سورة ق: [الآية ٢٩].
(٣) الراغب السابق ٣٢٣.
(٤) تفسير المنار ١/ ٥٦ - ٥٧.

وقد صور الله سبحانه وتعالى عبيد الهوى هؤلاء في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١).

أي أن عبودية البشر نوعان:

عبودية مادية أو غيرية.

وعبودية ذاتية أو معنوية.

والنوع الثاني: أشد وأنكى وأقوى خطرا من النوع الأول الذي يكون فيه الإنسان مملوكا لغيره. ويرجع ذلك للأسباب الآتية.

١ – أن العبد المملوك يكون في الغالب الأعم عن غير اختيار في نفسه، فالظروف من حرب وما شابه ذلك هى التي أوقعته في دائرة العبودية. وهذه العبودية المادية لا تحول بين العبد والتفكير السديد والبصر والاعتبار والإيمان بالله والقيم، «فالسيد» يملكه جسدا، ولا سلطان له علي عقله وقلبه ومشاعره.

أما العبودية المعنوية فهى اختيارية .. إنسان آثر طريق الفساد والفجور والانحلال حتى أصبح «إلهه هواه» وفي ذلك إلغاء لهويته الإنسانية بعد أن صار كالأنعام أو أضل.

٢ – أن العبودية المعنوية تدفع صاحبها إلى ارتكاب أحط المفاسد من زنى وسرقة وقتل وإدمان الخمر، وفي ذلك ما فيه من تدمير المجتمعات وتخريبها.

٣ – كما أن خطر الاقتداء «مرتبط بالنوع الثاني فالحالة الواحدة تصبح حالات، والخلية المريضة الواحدة - بالتقليد الأعمى وسهولة الفساد - تتحول - إلى آلاف الخلايا وملايينها.

* * *

وفي هذا المقام نقف أمام قوله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢).

وفي هذه الآية تعددت أقوال المفسرين:

١ – فقيل إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبده فجاء بلفظ العموم ومعناه

(١) سورة الأعراف: [الآية ١٧٩] - ذرأنا: خلقنا وأوجدنا.

(٢) سورة الذاريات: [الآية ٥٦].

الخصوص، والمعنى وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون. قال القشيري: والآية دخلها التخصيص على القطع، لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس** ﴾ ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم..

٢- وقال علي رضي الله عنه: وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بالعبادة. واعتمد الزجاج على هذا القول، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا** ﴾(١).

٣ - وقال مجاهد: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفون.. لأنه لو لم يخلقهم لما عُرف وجوده وتوحيده، ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾(٢). ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** ﴾(٣).

٤ - وقال مجاهد أيضا: وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم وأنهاهم.

٥ - وعن زيد بن أسلم: هو ما جبلوا عليه من الشقوة والسعادة، فخلق السعداء من الجن و الإنس للعبادة، وخلق الأشقياء منهم للمعصية.

٦ - وعن الكلبي أيضا: وما خلقت الجن والإنس إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة و الرخاء، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾(٤).

٧ - وقال عكرمة: إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد(٥).

* * *

ويرى الطبري أن أولى الأقوال بالصواب هو قول ابن عباس: ما خلقت الجن و الإنس إلا لعبادتنا والتذلل لأمرنا طوعا وكرها فإن قال قائل فكيف كفروا، وقد خلقهم للتذلل لأمره؟ قيل إنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم، لأن قضاءه جار عليهم، لا يقدرون من الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما

---

(١) سورة التوبة: [الآية ٣١].
(٢) سورة الزخرف: [الآية ٨٧].
(٣) سورة الزخرف: [الآية ٩].
(٤) سورة لقمان: [الآية ٣٢].
(٥) القرطبي ٧/٦٢٢٥-٦٢٢٦. وابن كثير ٧/٢٧٤.

التذلل لقضائه فهو غير ممتنع(١).

* * *

ويقول صاحب الكشاف: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها. فإن قلت لو كان مريدا للعبادة منهم لكانوا كلهم عباداً. قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها لأنه خلقهم ممكنين. فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدّتْ من جميعهم، يريد إن شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم(٢).

* * *

والخلاف بين هذه الأقوال ليس خلافا جوهريا بل يكاد يكون لفظياً، وخصوصا إذا فسرنا العبادة تفسيرا أوسع وأشمل من مجرد الشعائر المباشرة فالعبادة كما يقول ابن تيمية اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة: فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه والرضا بقضائه، والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة(٣).

ووظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعا، وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور على أن هناك عبدا وربا: عبدا يَعْبد، وربا يُعْبد، وأن ليس وراء ذلك شيء، وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار، ليس في هذا الوجود إلاعابد ومعبود، وإلارب واحد والكل له عبيد.

(١) الطبري: جامع البيان ٢٧/١٦-١٧.
(٢) الكشاف ٤/٢١.
(٣) ابن تيمية: العبودية ٢٣-٢٤.

والثاني : هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة ، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ، و يصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله .. كلها عبادة وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها ، وكلها خضوع للناموس العام الذين يتمثل في عبودية . كل شيء لله دون سواه(١).

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق: أفق العبادة أو أفق العبودية ويستقر عليه، فإن نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة ولو كانت هذه الغاية هى نصر دعوة الله و جعل كلمته هى العليا فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم، ومن جهة أخرى فهو لا يُعنّي نفسه ببلوغ الغايات ، وإنما يعنّي نفسه بأداء الواجبات تحقيقا لمعنى العبادة في الأداء، أما الغايات فموكولة لله، يأتي بها وفق قدره الذي يريده، ولا داعي لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله، وليست داخله في حساب المؤمن العابد لله.

ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير وطمأنينة النفس وصلاح البال في جميع الأحوال سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها، تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها، فهو قد أنهى عمله وضمن جزاءه عند تحقيق معنى العبادة واستراح، وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته، وقد علم هو أنه عبد فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد وعلم أن الله رب ، فلم يعد يتقحم فيما هو من شئون الرب. واستقرت مشاعره عند هذا الحد، ورضي الله عنه، ورضي هو عن الله.

وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة، التي تقررها آية واحدة قصيرة « **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** » وهى حقيقة كفيلة بأن تغير وجه الحياة كلها عندما تستقر حقا في الضمير(٢).

إفراد الله وتخصيصه بالعبادة:

العبادة خاصة بالله سبحانه وتعالى ، فلا عبادة إلا لله .. والمسلم يقرأ سورة الفاتحة أم

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٨٧.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٨٩.

الكتاب كل يوم في صلاته سبع عشرة مرة وفيها ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(١) وفي الآية تقديم للمفعول وهو إياك ، وكرر للاهتمام والحصر أي لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين.

فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل(٢).

والالتفات من الغيبة إلى المواجهة بهدف الخطاب، لأن العبد لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال إياك نعبد وإياك نستعين (٣).

وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما (إياك نعبد) يعني إياك نوحد ونخاف، ونرجوك يا ربنا لا غيرك . (وإياك نستعين) على طاعتك وعلى أمورنا كلها، قال قتادة (إياك نعبد و إياك نستعين) يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أموركم. وإنما قدم «إياك نعبد » على «وإياك نستعين» لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها (٤).

ويرى رشيد رضا أن تقديم العبادة على الاستعانة راجع إلى أن الاستعانة ثمرة للعبادة، ولا ينافي هذا أن العبادة نفسها مما يستعان عليه بالله تعالى ليوفق العابد للإتيان بها على الوجه المرضي له عز وجل، لا منافاة بين الأمرين لأن الثمرة التي تخرج من الشجرة تكون حاوية للنواة التي تخرج منها شجرة أخرى، فالعبادة تكون سببا للمعونة من وجه، والمعونة تكون سببا للعبادة من وجه آخر(٥).

وتمثل (إياك نعبد وإياك نستعين) كلية اعتقادية . . فلا عبادة إلا لله ولا استعانة إلا بالله، وهنا كذلك مفرق طريق. . مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد، وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل: التحرر من عبودية الأوهام ، والتحرر من عبودية النظم، والتحرر من عبودية الأوضاع . وإذا كان الله وحده هو الذين يعبد، والله وحده هو الذي يستعان فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص ، كما تخلص من استذلال الأساطير والأرقام والجزافات(٦).

---

(١) سورة الفاتحة: [٥].
(٢) ابن كثير : ١/ ٦٢ .
(٣، ٤) السابق – نفسها.
(٥) تفسير المنار ١/ ٦١.
(٦) في ظلال القرآن ١/ ٢٥.

وعن إفراد الله سبحانه وتعالى بالسؤال والاستعانة ما يروى عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: كنت خلف النبي يوما فقال: **يا غلام إني أعلمك كلمات: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام و جفت الصحف»**(١).

وإقرار الله سبحانه وتعالى بالعبادة يأتي بأسلوب الحصر في آيات متعددة. منها:

- ﴿ **أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** ﴾(٢).
- ﴿ **أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ** ﴾(٣).
- ﴿ **.. إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾(٤).
- ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾(٥).

وقد بعث الله سبحانه وتعالى رسله لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور وكان جوهر دعوة كل منهم توجيه الناس إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وكانت هذه الدعوة مرتبطة غالبا بذكر وحدانية الله : وكانت هى دعوة جميع الأنبياء على الأطلاق.

- ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾(٦).
- ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾(٧).
- ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾(٨).
- ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾(٩).
- ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾(١٠).

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٣٨) باب (٥٩) حديث رقم ٢٥١٦ - ٤/٦٦٧ وقال حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد بن حنبل في مسنده حديث رقم ٢٦٦٩-٣/١٩٤.

(٢) سورة هود: [الآية ٢].

(٣) سورة هود : [الآية ٢٦].

(٤) سورة يوسف: [الآية ٤٠].

(٥) سورة الإسراء : [الآية ٢٣].

(٦) سورة الأنبياء : [الآية ٢٥].

(٧) سورة النحل : [الآية ٣٦].

(٨) سورة الأعراف : [الآية ٦٥].

(٩) سورة الأعراف : [الآية ٧٣].

(١٠) سورة الأعراف : [الآية ٨٥].

- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾(١).

- ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

* * *

العبد في القرآن

وفي القرآن الكريم وردت كلمة عبد في استعمالات أربعة هي:

١- العبد بالمفهوم المعروف أى المملوك كما نرى فى قوله تعالى:

- ﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ ﴾(٣).

- ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾(٤).

٢- العبد بمعنى الإنسان بصفة عامة - حرًا كان أو مملوكًا:

- ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾(٥).

- ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾(٦).

٣- العبد وصفًا للأنبياء والرسل

- ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾(٧).

- ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ ﴾(٨).

- ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾(٩).

٤- العبد وصفا لمحمد ﷺ: وقد نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله كما نرى في الآيات الآتية:

- ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾(١٠).

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ ﴾(١١).

---

(١) سورة المؤمنون: [الآية ٢٣].
(٢) سورة العنكبوت: [الآية ١٦].
(٣) سورة البقرة: [١٧٨].
(٤) سورة البقرة: [٢٢١].
(٥) سورة سبأ: [٩].
(٦) سورة ق: [٨].
(٧) سورة مريم: [٣٠].
(٨) سورة ص: [١٧].
(٩) سورة القمر: [٩].
(١٠) سورة الإسراء: [١].
(١١) سورة الكهف: [١].

- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾(١).

- ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾(٢).

- ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾(٣).

- ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾(٤).

- ومن الإكرام كذلك إضافة العبد إلى ضمير الجلالة بالجمع (نا).

- ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾(٥).

- ﴿ .. إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾(٦).

- ولم يذكر مثل ذلك إلا مرة واحدة لكل من داود وأيوب ونوح عليهم السلام(٧).

ونلاحظ في هذا النهج القرآني ما يأتي:

١- أن ذكر العبد -وهو رسول الله ﷺ - مضافًا إلى الضمير المفرد (الهاء) أو ضمير الجمع - لا يرد إلا في سياق ذكر نعمة الله سبحانه وتعالى على نبيه.

- ففي سياق ذكره المتقين:

- ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾(٨).

وكذلك نعمة الإسراء الذى كان -والمعراج- تسرية عن النبى ﷺ وتثبتًا لفؤاده بعد أن لاقى من الكفار ما لاقى ومات أقوى نصيرين له: خديجة وأبو طالب حتى سمى العام عام الحزن.

أما بقية الآيات فتذكر نعمة القرآن، وفي ذلك تعظيم لله بالنص (تبارك -سبحان- الحمد لله) أو بدلالة الآيات بصورة غير مباشرة.

---

(١) سورة الفرقان: [١].
(٢) سورة الزمر: [٣٦].
(٣) سورة النجم: [١٠].
(٤) سورة الحديد: [٩].
(٥) سورة البقرة: [٢٣].
(٦) سورة الأنفال: [٤١].
(٧) وذلك الآيات: ص١٧-ص٤١- القمر ٩ (على الترتيب).
(٨) سورة الزمر: [٣٥-٣٦].

وفى ذلك تعظيم للقرآن فهو نعمة يستحق الله الحمد من أجلها . وهو سليم سديد (**لم يجعل له عوجا**) . وآياته بينات لا لبس فيها ولا غموض . وهو « فرقان » لأنه فرق بين الحق والباطل، وهو « كتاب » كامل معجز جدير بتحدى الكفار أن يأتوا (بسورة من مثله، فلا يظهر منهم إلا العجز . ومن ثم يكون في العبودية تعظيم للرسول ﷺ وحماية له من وجوه هى :

١- **تلقيه أعظم رسالة وهى القرآن** – من أعظم مرسل وهو الله سبحانه وتعالى .

٢- **إضافة العبد إلى ربه** وهو مصدر العظمة والجلال والعزة . فنحن إذن أمام إله عظيم، وكتاب عظيم، ورسول عظيم .

٣- الربط بين **العبودية والكفاية** فالله – وهو القوي القادر على كل شيء، وهو الكافي الحامى لعبده محمد ﷺ دون حاجة إلى مؤيد ومعين لأنه عبده . . عبد الله الكافي . . وخصوصًا إذا كان الكفار يلجئون إلى منطق الإخافة والإفزاع « **أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه . .** » فهم يخوفونه ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً[١] .

وتؤكد الآيات بعد ذلك حقيقة اختصاص الله سبحانه وتعالى بالحسب والكفاية بمؤكدين :

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [٢] .

وقوله تعالى :﴿ . . قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [٣] .

وهذه الحقيقة الإيمانية تتكرر فى عدد من الآيات :

- ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[٤] .
- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[٥] .

أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك فلا يحتاجون معه إلى أحد[٦] .

ومن ظن أن المعنى : حسبك الله والمؤمنون معه فقد غلط غلطًا فاحشًا[٧] .

---

(١) ابن كثير ٧ / ٦٤ .
(٢) سورة الزمر : [٣٧] .
(٣) سورة الزمر : [٣٨] .
(٤) سورة الأنفال : [٦٢] .
(٥) سورة الأنفال : [٦٤] .
(٦) ابن القيم : زاد المعاد ١ / ٦ .
(٧) ابن تيمية : العبودية .

- ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾(١).

وهذه الحقيقة الإيمانية - وهي انفراد الله سبحانه وتعالى بالعبودية - كانت مددا نفسيا قويا لتثبيت المؤمنين وتشجيعهم على الثبات أمام أعدائهم.

- ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾(٢).

فالتوكل والإنابة والحب لله وحده كما أن العبادة والتقوى والسجود لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى(٣).

* * *

والعبد يراد به (المعبّد) الذي عبّده الله فذلّله ودبّره وصرّفه. وبهذا الاعتبار فالمخلوقون كلهم عباد الله: الأبرار منهم والفجار والمؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، فما شاء كان، وإن لم يشاءوا، وما شاءوا إن لم يشأه لم يكن كما قال تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾(٤).

فهو سبحانه رب العالمين، وخالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم، ومقلب قلوبهم، ومصرف أمورهم، لا رب غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق لهم إلا هو، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواء علموا بذلك أو جَهِلُوه، لكن أهل الإيمان عرفوا ذلك واعترفوا به، بخلاف من كان جاهلاً بذلك أو جاحدا له مستكبرا على ربه، ولا يقر ولا يخضع له مع علمه بأن الله ربه وخالقه فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كانت عذاباً على صاحبه كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾(٦).

فإذا اعترف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه، محتاج إليه؛ عرف العبودية

(١) سورة التوبة: [١٢٩].
(٢) سورة آل عمران: [١٧٣].
(٣) زاد المعاد ١/٦.
(٤) سورة آل عمران: [٨٣].
(٥) سورة النمل: [١٤].
(٦) سورة الأنعام: [٣٣].

المتعلقة بربوبية الله، وهذا العبد يسأل ربه، ويتضرع إليه ويتوكل عليه، ولكن قد يطيع أمره، وقد يعصيه، وقد يعبده مع ذلك، وقد يعبد الشيطان والأصنام.

ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار، ولا يصير بها الرجل مؤمناً كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾(١).

فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم، وهم يعبدون غيره. قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾(٢).

وكثير ممن يتكلم في الحقيقة، ويشهدها يشهد هذه الحقيقة، وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر، بل وإبليس معترف بهذه الحقيقة وأهل النار: قال إبليس: ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) ﴾(٣).

وقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾(٤). وكذلك أهل النار ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) ﴾(٥).

والنوع الثاني من معنى العبد هو العبد بمعنى **العابد** فيكون عابداً لله لا يعبد إلا إياه، فيطيع أمره وأمر رسله ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين ويعادي أعداءه.

وهذه العبادة متعلقة بإلاهيته تعالى ولهذا كان عنوان التوحيد «لا إله إلا الله» بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده، أو يعبد معه إلهاً آخر.

فالإله: هو الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك. وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المصطفين من عباده، وبها بعث رسله.

وأما العبد بمعنى المعبَّد - سواء أقرّ بذلك أو أنكره، فهذا المعنى يشترك فيه المؤمن والكافر.

وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي التي يحبها ويرضاها، ويوالي أهلها ويكرمهم بجنته، وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر التي من اكتفى بها، ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس اللعين والكافرين برب العالمين، ومن اكتفى بها في

---

(١) سورة يوسف: [١٠٦].
(٢) سورة الزمر: [٣٨].
(٣) سورة ص: [٧٩].
(٤) سورة ص: [٨٢].
(٥) سورة المؤمنون: [١٠٦].

بعض الأمور دون بعض أو في مقام دون مقام أو حال دون حال - نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية(١).

فهناك إذن نوعان من العبودية: عامة وخاصة:

فالعبودية العامة هي عبودية القهر والملك، أو هي العبودية القسرية، وتتمثل في عبودية الخلق كلهم لله تعالى أبرارا وفجاراً مؤمنين وكافرين لأن الله ربهم ومليكهم لا يخرجون عن ملكه ومشيئته وقدرته... وهذه هي «عبودية الربوبية» التي لا تخرج صاحبها من الكفر إلى الإيمان(٢).

أما العبودية الخاصة فهي الفرق ما بين أولياء الله وأولياء الشيطان، فلما كان الخلق جميعاً عبيدا للربوبية، انفرد المؤمنون بالعبودية الخاصة، فهم عبيد ألوهيته تعالى؛ لأنهم خضعوا طوعاً واختيارا وحباً، وتسمى هذه العبودية عبودية الطاعة والمحبة أو العبودية الإرادية أو عبودية الألوهية لأن المؤمنين أفردوا الله بالألوهية(٣).

١ - العبودية العامة تشمل الخلق كلهم أما الخاصة فلا يدخل فيها إلا المؤمنون..

٢ - العبودية العامة قهرية قسرية لا خروج للكائنات عنها، وأما العبودية الخاصة فهي إرادية اختيارية.

٣ - الحساب والجزاء يوم القيامة على العبودية الخاصة لأنها هي المطلوبة من العباد؛ ولذلك كانت العبودية العامة لا تُدخل في الإيمان ولا في الجنة، ولا تخلص صاحبها من النار ما لم يدخل في العبودية الخاصة.

٤ - العبودية العامة لا تأتي في القرآن إلا مقيدة، وتأتي العبودية الخاصة مطلقة: فإذا أضيف العباد إلى الله في القرآن مطلقًا عني بهم عبيد إلهيته وأما إضافة عبيد الربوبية فتأتي مقيدة(٤).

فمن الفروق الجوهرية بين هذين النوعين فارق يتعلق بالكم وفارق يتعلق بالكيف:

فمن ناحية الكم نجدأن العبودية العامة تشمل الخلق جميعًا، أما الخاصة فلا تصدق إلا على المؤمنين.

ومن ناحية الكيف نجد أن العبودية العامة قهرية لا يستطيع المخلوق الخروج منها

---

(١) انظر ابن تيمية: العبودية ٣٨ - ٤٥ وانظر له كذلك مجموعة الرسائل والمسائل ٢/ ٢٧١ - ٢٧٢.
(٢) د. محمد ملكاوي: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ١٠٠.
(٣) انظر ملكاوي - السابق: ١٠٠ - ١٠١.
(٤) انظر السابق ١٠٢.

والامتناع عنها، أما العبودية الخاصة فهي إرادية اختيارية. ومن ثم يكون الحساب عليها يوم القيامة لأنها تكليف من الشارع يترقب عليه مسئولية.

* * *

ومن خصائص الإلهية - كما يقول ابن القيم الكمال المطلق من جميع الوجوه لا نقص فيه من جميع الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب[١].

ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب مع غاية الذل، هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين[٢].

وكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وفضله عما سواه. **والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين:**

من جهة العبادة: وهي العلة الغائية.

ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلة.

فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده، ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة[٣].

ومن خصائص الإلهية السجود فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به، ومنها التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به، ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به، ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً، فمن حلف بغيره فقد شبهه به، هذا في جانب التشبيه.

وأما في جانب التشبّه به، فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته[٤]، وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ١ - ٢.
(٢) السابق نفس الصفحة.
(٣) ابن تيمية: العبودية ١٣١ - ١٣٢.
(٤) ابن القيم: مرجع سبق ٢٠٢.

فهو سبحانه ملك الملوك وحده، وهو حاكم الحكام وحده، فهو الذي يحكم على الحكام كلهم ويقضي عليهم كلهم لا غيره(١).

وجماع الدين كما يقول ابن تيمية - أصلان هما:

- ألا نعبد إلا الله.

- ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع كما قال تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (١١٠)﴾(٢)، وذلك تحقيق الشهادتين شهادة أن لا إله الله، وشهادة أن محمداً رسول الله.

ففي الأولى: ألا نعبد إلا إياه.

وفي الثانية: أن محمداً ﷺ هو رسول الله المبلغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره، وقد بين لنا ما نعبد الله به، ونهانا عن محدثات الأمور وأخبر أنها ضلالة، قال تعالى: ﴿**بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** (١١٢)﴾(٣).

كما أننا مأمورون ألا نخاف إلا الله، ولا نتوكل إلا على الله، ولا نرغب إلا إلى الله، ولا نستعين إلا بالله، وأن لا تكون عبادتنا إلا لله، فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ونطيعه، ونتأسى به، فالحلال ما حلله، والحرام ما حرمه والدين ما شرعه....

قال تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾(٤).

وقال: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** (٥٢)﴾(٥).

* * *

بين العبودية والعزة

والمسلم مطالب بإقرار عبوديته لله عقيدة وقولاً وسلوكاً وعملاً، فهو في كل صلواته ما كان فرضاً منها ونفلاً يتلو: «إياك نعبد وإياك نستعين»... وفي صلواته يسجد لله في اليوم عشرات المرات استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا**

---

(١) ابن القيم مرجع سبق ٢٠٣.
(٢) سورة الكهف: [١١٠].
(٣) سورة البقرة: [١١٢].
(٤) سورة الحشر: [٧].
(٥) سورة النور: [٥٢]، وانظر ابن تيمية العبودية ٢٢١ - ٢٢٥.

وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾(١)، والسجود من أول الأفعال على الخضوع والتذلل، والمسلم مطالب بأن يعلن عبوديته لله في السر والعلن وفي المنشط والمكره وفي السراء والضراء، فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزن فقال اللهم إني عبدُك وابن عبدك، وابن أَمَتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمّيتَ به نفسَك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً «قال فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»**(٢).

يقول ابن القيم - رحمه الله:

تضمن هذا الحديث أموراً من المعرفة والتوحيد والعبودية منها:

أن الداعي به صدّر سؤاله بقوله: إني عبدك - ابن عبدك - ابن أمتك، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء، وفي ذلك تملق له واستخذاء بين يديه، واعتراف بأنه مملوكه، وآباؤه مماليكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلى عنه هلك، ولم يؤوه أحد، ولم يعطف عليه، بل يضيع أعظم ضيعة، فتحت هذا الاعتراف: إني لا غنى بي عنك طرفة عين، وليس لي من أعوذ به وألوذ به غير سيدي الذي أنا عبده.

وفي ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبَّر مأمور منهي، إنما يتصرف بحكم العبودية لا بحكم الاختبار لنفسه، فليس هذا شأن العبد، بل شأن الملوك والأحرار، وأما العبيد فتصرفهم على محض العبودية؛ فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(٣)، وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾(٤)، ومن عداهم عبيد القهر والربوبية، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه، وداره التي هي

---

(١) سورة الحج: [٧٧].

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح، حديث رقم ٣٧١٢ - ٣/٥٥٨، ورواه الحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (١٧) - حديث ١٨٧٧ - ١/ ٦٩٠، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، فإنه مختلف في سماعه عن أبيه.

(٣) سورة الحجر: [٤٢].

(٤) سورة الفرقان: [٦٣].

الجنة إليه، وإضافة عبودية رسوله إليه بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾(١)، و ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ..﴾(٢)، و ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾(٣).

وفي التحقيق بمعنى قوله «**إني عبدك**» التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه واللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به، ولياذه به، وأن لا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفاً ورجاءً.

وفيه أيضاً: إني عبد من جميع الوجوه: صغيراً وكبيراً، حياً وميتاً، مطيعاً وعاصياً، معافى ومبتلى بالروح والقلب واللسان والجوارح.

وفيه أيضاً: إن مالي ونفسي مُلك لك؛ فإن العبد وما يملك لسيده.

وفيه أيضاً: إنك أنت الذي مننت عليّ بكل ما أنا فيه من نعمة، فذلك كله من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضاً: إني لا أتصرف فيما خولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده، وإني لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فإن صح له مشهود ذلك، فقد قال إني عبدك حقيقة(٤).

* * *

هذا هو مقام «العبودية»، والمسلم لا يكون مسلماً إلا إذا أخذ نفسه بالتزاماتها عقيدة ومنهجاً، وعملاً وسلوكاً وقولاً في كل المواقف والأحوال والانسلاخ من هذه الالتزامات أو بعضها كالسجود لغير الله، والتوكل على غيره يعني انسلاخاً من الإسلام.

ومن جانب آخر يلزم الإسلام المسلم أن يكون شامخاً أبياً عزيز النفس لا يهون ولا يتصنع ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾(٥) وهو سبحانه القائل ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٦).

فكيف يستقيم الأمر بالعبودية – وهي كما رأينا تسليم وخضوع وسجود – والأمر بالعزة وهي إباء وشموخ ومنعة وترفع؟

قد يتوهم ذو النظر القصير أن هناك تناقضاً بين التوجهين، والواقع أنه لا تناقض بل إن

(١) سورة البقرة: [٢٣].
(٢) سورة الإسراء: [١].
(٣) سورة الجن: [١٩].
(٤) ابن القيم: الفوائد ٤٢ – ٤٤.
(٥) سورة آل عمران [١٣٩].
(٦) سورة المنافقون: [٨].

النظرة الفاحصة لتقودنا إلى أن مفهوم العبودية يقترب من مفهوم العزة حتى لنكاد نقول إنهما مترادفان لذلك جعلنا العنوان: العبودية.. العزة:

١ - فالله الذي أمر المسلمين بالسجود والعبادة هو الذي أمر المسلمين بعزة النفس، فالعزة لله جميعاً، وجعلها لرسوله وللمؤمنين أيضاً (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)، فالله سبحانه وتعالى هو مصدر الأمر بالعبودية ومصدر الأمر بالعزة... ووحدة المصدر تنفي وجود التناقض.

* * *

٢ - وعزة المسلم بمفهومها الشامل السديد ليست مطلقة في مواجهة الآخرين والتعامل معهم؛ فهي لا تتحقق في الواقع العملي إلا مع «الذلة».

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (٥٤) ﴾(١).

فمن صفات المؤمنين الذين يحبهم الله ورسوله أنهم ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾، وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين؛ فالمؤمن ذلول للمؤمن غير عصي عليه ولا صعب، هين ليّن، ميسر مستجيب، سمح ودود، وهذه هي الذلة للمؤمنين، وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة. إنما هي الأخوة ترفع الحواجز، وتزيل التكلف، وتخلط النفس بالنفس فلا يبقي فيها ما يستعصي، وما يحتجز دون الآخرين.

وهم ﴿ **أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ فبهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء... إنها ليست العزة للذات ولا الاستعلاء للنفس، إنما هي العزة للعقيدة، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين، إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم، لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم، ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين، وما عند الآخرين.. ثم هي الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى، وبغلبة قوة الله على تلك القوى، وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية؛ فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك في أثناء الطريق الطويل(٢).

ومن الآيات التي تجمع بين «العزة» و«العبودية» قوله تعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ**

---

(١) سورة المائدة: [٥٤].

(٢) في ظلال القرآن ٢/٩١٩.

وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾(١).

فمحمد ﷺ وأتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه أشداء على الكفار، غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم، ولكنهم «رحماء بينهم» رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم... وهم يلتمسون بركوعهم وسجودهم وشدتهم على الكفار ورحمة بعضهم بعضاً فضلاً من الله وذلك رحمته إياهم، بأن يتفضل عليهم فيدخلهم جنة، وأن يرضى عنهم ربهم(٢).

* * *

٣ - والجهاد في سبيل الله هو أهم مظهر من مظاهر العزة الإسلامية، وكان كذلك من أهم الوسائل لتحقيق العبودية لله، وهى الغاية العظمى من بعث الرسل عليهم السلام فيروى عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثتُ بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد اللهُ وحده لا شريك له، وجُعِل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعِلَ الذلة والصَّغَار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وقد استوعب السلف الصالح من الصحابة والتابعين هذا المعني، وأدركوا أن هدف الجهاد هو تحقيق عبودية الله في الأرض، فالطبري يروي في أحداث العام الرابع عشر للهجرة - في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وسعد بن أبي وقاص وجيش المسلمين يتأهبون لخوض معركة القادسية: نزل رستم قائد الفرس بالقنطرة وراسل **زهرة بن حوبة**(٣) أحد قادة المسلمين فخرج إليه حتى واقفه (اقترب منه) وواجهه، فأراد أن يصالحهم ويجعل له جُعْلاً على أن ينصرفوا عنه، ودار بينهما حوار طويل ختمه زهرة بقوله: **إنّا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة... بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولاً، فدعانا إلى ربه، فأجبناه فقال لنبيه ﷺ: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدنْ بديني، فإنا ننتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغَلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به أحد إلا عز... أما عموده الذي لا يصلح**

---

(١) سورة الفتح: [٢٩].

(٢) تفسير الطبرى ٢٥/١٤١ - ١٤٢ اخرجه احمد بإسناد صحيح في مسنده: ح ٥١١٥، ٥١١٤ - ٤/٥١٦، ح ٥٦٦٧ - ٥/١٧١.

(٣) هو زهرة بن حوبة بن عبد الله بن قتادة التميمي السعدي أوفده ملك هجر على النبي ﷺ شهد القادسية مع سعد، وهو الذي قتل الجالينوس، وعاش إلى زمن الحجاج فقتل في وقعة شبيب الخارجي سنة سبع وسبعين، [ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ١/٥٥٢].

منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى...(١).

وقريب من هذا ما قاله ربعي بن عامر حين سأله رستم ما جاء بكم؟ أجاب ربعي: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل منا ذلك قبلْنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نقضي إلى موعود الله(٢).

وهو نفس المنطق الذي واجه به المغيرة بن شعبة(٣) قائد الفرس في نهاوند بندار (أو مروان شاه ذا الجناحين) سنة ٢٣ هـ وكان قد طلب رجلاً من المسلمين يكلمه، فأخذ العلج يذم العرب ويصفهم بالقذارة والشقاء والضياع، وجاء في رد المغيرة:

«... حتى بعث الله عز وجل إلينا رسوله ﷺ فوعدنا النصر في الدنيا والجنة في الآخرة، فوالله مازلنا نتعرف من ربنا – منذ جاءنا رسوله – الفتح والنصر، حتى أتيناكم، وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما في أيديكم أو نقتل بأرضكم(٤).

٤ – ونستطيع أن نتبين أن بين العبودية والعزة علاقة سببية، فالعبودية بمفهومها الحق هى العامل الأساسي في تحلي المسلم بالعزة بمفهومها الإيماني السديد؛ إذ أن العبودية لها جانبها السلبي وهو جانب «التخلي» أو جانب الرفض؛ فالمسلم – حتى يحقق عبوديته لله – عليه أن يرفض الشرك والظلم والخضوع والسجود لغير الله، ويرفض الحرص على الدنيا واستعباد (الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة)، ويرفض أن يكون حبه وولاؤه لغير الله ورسوله.

أما الجانب الإيجابي للعبودية فنجده ممثلاً في قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾**(٥).

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥١٧ – ٥١٨. (٢) السابق ٣/٥٢٠.

(٣) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر الثقفي أسلم قبل الحديبية وشهدها، ولاه عمر البصرة ثم الكوفة، وعزله عثمان، ثم بايع معاوية فولاه الكوفة، وظل بها حتى مات سنة ٥٠ هـ، واشترك في معارك القادسية، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق. وفي القادسية، كان رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم، وهو أحد دهاة العرب حتى اشتهر بمغيره الرأي، [الإصابة ٣/٤٥٢ – ٤٥٣].

(٤) تاريخ الطبري ٤/١١٨. (٥) سورة الأنعام: [١٦٢، ١٦٣].

فيفرد الله بالعبودية والسجود والسؤال والاستعانة والاعتماد، وأن يجعل حبه خالصاً لله ورسوله فإذا أحب من العباد فيجب أن يقصد بحبه وحبه الله، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحبُّ المرءَ لا يحبه إلا لله، ومن كان يكرَهُ أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه اللهُ منه كما يكرهُ أن يُلقى في النار»(١).

* * *

٥ – وقد عرضنا في الفصل السابق مقتضيات العزة ونواقضها وبالاستقراء يمكن أن نقول إنها جميعاً أو أغلبها تصدق على «العبودية» تأكيداً أو نقضاً مما يجعلنا نقرر في هذا المقام استحالة تحقق (العبودية) مع تخلف العزة، فلو أن المسلم أقام أركان الإسلام الخمسة لكنه سار في درب الذل مستسلماً للظالم راضياً بالطاغوت مشرعاً برأيه وهواه، قابلاً ما ينزل به من هوان... لكانت عبوديته لله منقوصة بل منقوضة يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)**﴾(٢).

ومن نواقض العبودية والعزة في الوقت نفسه التسليم للبشر بالتشريع، وأخذ النفس بما شرعوا حلالاً كان أو حراماً، مع أن الشارع هو الله سبحانه وتعالى ونبيه الكريم ﷺ.

فعن عدي بن حاتم(٣) قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾(٤)، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان (٢) باب حلاوة الإيمان (٩) ح ١٦، ص ١/٧٧ (فتح الباري)، ومسلم: كتاب الإيمان – باب وجوب محبة الله ورسوله ح ٦٤ – ١/٢١٨، وابن ماجه: في كتاب الفتن (٣٦) ح ٤٠٣٣ – ٣/٤٣١، والنسائي: كتاب الإيمان وشرائعه ٤٧١ باب ٢، ٣، ٤ – ح ٤٩٨٧ – ٨/٩٤ ح ٤٩٨٨ – ٨/٩٦، ٤٩٨٩ – ٨/٩٧، والترمذي في كتاب الإيمان (٤١) باب (١٠) ح ٢٦٢٤– ٥/١٥ وقال حسن صحيح، وأحمد: ح ١٢٣٤٠ – ١١/١٧٢، ١٣٥٢٦ – ١١/٢٢٥ – ١٣٨٤٧ – ١٠/٣٠٥، ١٢٧٠١ – ١٠/٥٥٥، ١١٩٤١ – ١٠/٣٢٨، ١٢٧١٩ – ١١/٥، ١٤٠٠٣ – ١١/٣٤٤ بإسناد صحيح.

(٢) سورة النساء: [٩٧].

(٣) عدي بن حاتم، هو عدي بن حاتم بن عبد الله الطائي أسلم عام ٩ أو ١٠ هـ، وكان نصرانياً قبل ذلك، وثبت على إسلامه في الردة، وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع علي وقد أسنّ وقيل مات بعد أن بلغت سنه ١٢٠ سنة، [الإصابة لابن حجر ٢/٤٦٨].

(٤) سورة التوبة: [٣١].

شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه(١).

* * *

٦ – ومن ناحية أخرى لا تتحقق العزة بلا عبودية لله، فلو تخلفت العبودية لم تبق إلا العزة بمفهومها الشائه المنحرف الشاذ... ويكون من طوابعها العصبية والتكبر والغرور والجحود، إنها عزة الطواغيت من أمثال قارون وفرعون وأبي جهل وأبي لهب، قال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾(٢).

والاستقراء – كما يقول ابن تيمية – يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله كان أعظم إشراكاً بالله؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود – مقصود القلب بالقصد الأول – فيكون مشركاً بما استعبده من ذلك.

ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا لله، ولا يبغض شيئاً إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله»(٣).

والكافرون بكفرهم يبحثون عن مزيد من الحرية، وإذا تعبد أحدهم لله فعلى غير طريق العبودية الحق له، وكزعمهم أنهم يعبدون الله ويتخذون الأصنام إليه زلفى، أما المسلم فيبحث عن مزيد من العبودية لله، ويحاول أن يتحرر من كل ما يستعبده سوى الله، سواء في ذلك العبودية للجاه أو للمظهر أو للمجتمع أو لغرض من أغراض الدنيا، وذلك بمقتضى قوله (لا إله إلا الله)، فالعبودية هى أرقى مقام يتطلع إليه المسلم(٤).

---

(١) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن (٤٨) باب (١٠) ح ٣٠٩٥ – ٥/٢٧٨، وقال حديث غريب، وابن جرير الطبري بلفظ مقارب ١٠/١٤٧.

(٢) سورة العنكبوت: [٣٩].

(٣) ابن تيمية: العبودية ١٤٠ – ١٤١.

(٤) سعيد حوي من رسالة غذاء العبودية: ٥.

الفصل السادس

عـــزة المســلم ..

الشعـور والسلوك والمصـدر

الاستشعار والسلوك:

بين حدى الضياع والذلة والانكسار من جهة، والاستقرار والأمن والانتصار من جهة أخرى صور الله سبحانه وتعالى المسلمين بقوله: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٢٦) ﴾(١).

وكان «النقلة» من مكة إلى المدينة بداية عهد «التمكن» والبناء. وصدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وعاد المستضعفون المطرودون إلى مكة فاتحين منتصرين، ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ ...** (٢٧) ﴾(٢).

وتحقق الوعد الإلهي الصادق الكريم على نطاق أوسع آمادا في الزمان والمكان، فدك المسلمون قلاع الكفر والظلم والجبروت بمحق إمبراطوريتي الشيطان فارس والروم. وما أصدق قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** (٥٥) ﴾(٣).

وأصبح العبيد المعذبون في مكة، والفقراء المضطهدون أعزة كراما شامخين بالإسلام، ويسوق الله سبحانه وتعالى من ساحة الواقع أدلة على هذا التمكين في نطاق أخص فيمكن عبد الله بن مسعود من الإجهاز على قائد جيش الكفر في بدر، وهو أبو جهل الذى آذى ابن مسعود كثيرا بمكة، ويضع ابن مسعود قدمه على عنق أبي جهل وهو في النزع الأخير. ويسأله – بعزة المسلم: هل أخزاك الله يا عدو الله؟... ويحتز رأسه ويذهب به إلى رسول الله ﷺ(٤).

وجعل مصرع أمية بن خلف على يد بلال بن رباح الذى كان عبدا له في مكة، وكان يضع الصخر المحْمّر من الحرارة على صدره في الرمضاء، ويُنزل به أشد أنواع العذاب... وما أن رآه بلال يوم بدر حتى صاح بأعلى صوته «**يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا**».

---

(١) سورة الأنفال: [٢٦].

(٢) سورة الفتح: [٢٧].

(٣) سورة النور: [٥٥].

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٣٦.

وسقط رأس الكفر قتيلا هو وابنه على يد بلال وجماعة من المسلمين(١).

وكأني برسول الله ﷺ كان حريصا على أن يثبت للمشركين في مكة كيف أعز الله العبيد والفقراء والمستضعفين بالإسلام فاختار بلالا وأمره أن يعلو أشرف وأطهر مكان في الوجود ليؤذن للظهر. واعتلى بلال ظهر الكعبة، وكانت قريش فوق رؤوس الجبال، وقد فرّ وجوههم وتغيبوا خوفا أن يُقتلوا. فلما أذن بلال ورفع صوته كأشد ما يكون وقال: «**أشهد أن محمدا رسول الله**».

– قالت جويرية بن أبي جهل: قد لعمرى رفع لك ذكرك!! أما الصلاة فنصلي، والله لا نحب من قتل الأحبة أبدا، ولقد كان جاء أبي الذى جاء محمدا من النبوة فردها، وكره خلاف قومه (!!).

– وقال خالد بن الأسيد: الحمد لله الذى أكرم أبي فلم يشهد هذا اليوم.

– وقال الحارث بن هشام: واثُكلاه! ليتني متّ قبل هذا اليوم! **قبل أن أسمع بلالا ينهق فوق الكعبة**.

– وقال الحكم بن العاص: هذا والله الحدث العظيم، **أن يصيح عبد بني جمح على بَنيَّة أبي طلحة**(٢).

– وقال سهيل بن عمرو: إن كان هذا سخطا لله فسيغيره، وإن كان لله رضى فسيقره(٣).

ومن الطبيعى أن يعجز الكفار عن إدراك هذا «السلوك الجديد» وهم عاشوا، وكانوا مازالوا يعيشون فى «**عُبِّية الجاهلية وتعاظمها بآبائها**»(٤) كانوا مازالوا يعيشون حالة الكبر الكذوب، والغرور المنفوش، فلم يعُوا أن العبيد والضعفاء و «جلابيب قريش» يعيشون الآن حالة من العزة والقوة والطمأنينة جعلتهم هم «**الأعْلَوْن**».

* * *

وعاش المسلمون – بالإسلام – يستشعرون العزة واستعلاء الإيمان، وملأهم هذا الشعور بقيم متعددة من الثقة والشجاعة والثبات والاستهانة بالشدائد والصعاب.

فلم تكن هذه «العزة» مجرد شعور نفسي، ولكنها أخذت صورتها العملية في الأقوال والأفعال والسلوك والعلائق الاجتماعية. وفى الحروب حرص النبى ﷺ أن يكون

---

(١) السابق ١/ ٦٣٢.
(٢) البنية: البيت المبني، يريد الكعبة.
(٣) المقريزي: إمتاع الأسماع ٣٩٠.
(٤) عبية الجاهلية: حالتها من الكبر والجهل والوثنية.

لجيش المسلمين **شعار يهتفون به ويجتمعون عليه**[1]، ولم يكن الشعار عبارة تتردد عفويا، ولكن عبارة منتقاه لها دلالتها المتوهجة الناطقة بقوة العقيدة والثقة بالله، وعزة النفس، واستعلاء الإيمان والإصرار على العمل وتحقيق الهدف: ففي غزوة بدر كان شعار المسلمين «**أحدٌ أحد، أحد أحد**»[2].

وهو شعار يمثل جوهر العقيدة الإسلامية، ويشير إلى الركن الأول من أركان الإسلام الخمسة، وهو العبارة التى كان بلال رضي الله عنه يكررها، ويرطب لسانه بها أثناء تعذيبه في رمضاء مكة بالضرب والصخور المحماة.

وكان شعار المسلمين في أحد «**يا منصورُ أمِتْ**»[3]، وهو دعاء يرفعه المسلم إلى الله سبحانه وتعالى أن يميت أعداء الله والإسلام، كما أنه إعلان من المسلم بأنه يجاهد في سبيل الله، وينصر الله بجهاده، فالله سبحانه وتعالى هو الناصر والمنصور، فهو القائل جل وعلا ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ⑦﴾[4].

وكان شعار النبى ﷺ والمسلمين في زحفهم المبارك إلى خيبر وهم تحت أسوارها «**الله أكبر، الله أكبر خرِبتْ خيبر**»[5]. وهو شعار يذكر المسلمين بعظمة الله تعالى، وربط ذلك بكسر خيبر وإنزال الهزيمة النكراء بها، وفيه تهديد ليهود خيبر وإرعابهم باشعارهم بتصميم المسلمين على إلحاق الهزيمة بهم.

أما يوم الفتح وحنين والطائف فقد جعل النبي ﷺ للمسلمين شعارات ثلاثة: فشعار المهاجرين: **يا بني عبد الدار**.

وشعار الخزرج: **يا بني عبد الله**.

وشعار الأوس: **يا بني عبيد الله**[6].

وهذا الشعار أو هذه الشعارات تختلف عن سابقاتها في غلبة الطابع الإعلامي عليها؛ فهى تهدف إلى الإعلان عن كل «طائفة» لتحديد المسئولية انكسارا وانتصارا، لذا كان بعض القادة المسلمين يطلب أن تتمايز القبائل بالرايات: بأن يكون لكل قبيلة

---

(١) الشعار في الأصل ما تحت الدثار من اللباس، وهو يلى شعر الجسد. ويطلق على العلامة التى تتميز بها الدولة أو الجماعة، والعبارة التي يتعارف بها القوم في الحرب أو السفر (المعجم الوجيز ٣٤٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٣٤.

(٣) المقريزي: إمتاع الأسماع ٨٦.

(٤) سورة محمد: [٧] وقد يفسر الشعار على أنه موجه من المسلم إلى المسلم فالله يدافع عن المسلمين ويضمن لهم النصر ما أخلصوا.

(٥) الرحيق المختوم ٣٥٤.

(٦) ابن هشام: السابق ٢/ ٢٠٩.

راية تختلف في لونها أو شكلها عن الرايات الأخرى، حتى يدرك القائد العام «من أين يؤتي المسلمون»، ويكتشف الثغرات ونقاط الضعف، فيعمل على علاجها.

كما أن في ذلك إذكاء لروح المنافسة بين القبائل في ميدان القتال.

* * *

وتظهر روح العزة والاستعلاء الإيماني عند المسلمين بأقوى صورها أيام الشدائد والكروب والأزمات، مما يدل على ترسخ هذه السمة وتجذرها فيهم، ففي شوال من العام الخامس للهجرة خرجت قريش في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعتهم من أهل نجد، وحاصر هذا الجيش العدواني المسلمين الذين كانوا في ثلاثة آلاف لا يفصلهم عن أعدائهم إلا الخندق. وزاد من الكرب أن **«حيي بن أخطب النضري»** أخذ يلح على بني قريظة ويعدهم ويوعدهم، حتى أقنعهم بنقض العهد الذي كان بينهم وبين النبي ﷺ.

كانت قوة الأعداء أضعاف قوة المسلمين... قريش... غطفان... بنو النضير... بنو قريظة... ثم المنافقون الذين دأبوا على الغدر، واهتبال الفرص في ساعات الحرب والكروب. وطال أمد الحصار، وكان النبي ﷺ يدرك أن المسلمين إذا هزموا في هذه المعركة واقتحم الكفار المدينة واستحلوها فإن الخسارة ستكون فادحة على الأنصار أكثر بكثير من المهاجرين. وهي حقيقة ربما شغلت تفكير الأنصار أو بعضهم.

فحطر للنبي ﷺ أن يجرب حلا سياسيا يفتت به «وحدة الأحزاب، ويخذل به عن قريش. فبعث عليه الصلاة والسلام إلى سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج – رضى الله عنهما – يستشيرهما في اتفاق مع عيينة بن حصن والحارث ابن عوف على ثلث تمر المدينة، مقابل خروج غطفان وأهل نجد من حلف قريش، وفك الحصار عن المدينة، والرجوع إلى بلادهم.

وما خص النبي ﷺ السعدين بالمشاورة دون غيرهم إلا لأن غُرْم هذه الاتفاقية يقع على الأنصار، إذ إنهم أصحاب الأرض والنخل والثمار، وهم أصحاب المصلحة الحقيقية في مثل هذه الحال.

قال السعدان: يا رسول الله، أمرا تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به فلابد لنا من العمل به؟ أم شيئًا تصنعه لنا؟.

وجاء جواب الرسول ﷺ مقرونا بشرح الباعث إلى مثل هذا العمل، فقال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم[1] من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما.

فقال سعد بن مُعاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرًى أو بيعا[2]. **أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟!** والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك» وأخذ بما أشارا به، وامتنع عن إنفاذ هذا الاتفاق المطروح[3].

* * *

وكان منطق السعدين سديدا قويا؛ لأنه يمثل طبيعة الإسلام في الإباء والشموخ واستعلاء الإيمان، ورفض الذل والهوان.

كما أن مقولتهما توحي - بل تقطع - بإدراكهم الواعي: أن الإسلام دين العزة والرفعة والكرامة، وأن الوثنية والشرك بالله انحطاط وسفول، وتهتك وضياع.

ولكن يبقى السؤال التالي: **هل فات رسول الله ﷺ هذا المعنى الذي عرضه السعدان؟** إن قرائن الأحوال تخْلص بنا إلى أن رسول الله ﷺ ما فعل ذلك إلا على سبيل «جسّ النبض» ليرى مدى استعداد الأنصار للتضحية والصبر والمصابرة، والقدرة على الصمود.

فالحكمة إذن - كما يقول الدكتور البوطي - أن النبي ﷺ كان يريد أن يطمئن إلى مدى ما يتمتع به أصحابه الصادقون من القوة المعنوية، والاعتماد على نصر الله وتوفيقه على الرغم من هذا الذي فوجئوا به من اجتماع أشتات المشركين عليهم في كثرة ماحقة، إلى جانب ما طلعت به بنو قريظة في الوقت نفسه من نقض العهود والمواثيق، وقد كان من عادته أنه لم يكن يحب أن يسوق أصحابه إلى حرب، أو مغامرة لا يجدون

---

(1) كالبوكم: اشتدوا عليكم.

(2) أى إلا على سبيل الضيافة أو التجارة.

(3) انظر السيرة النبوية لابن هشام 2/ 214 - 223.
والحافظ الذهبى: تاريخ الإسلام (المغازى) 237 - 238.
ومحمد الخضرى: نور اليقين 248.

في أنفسهم شجاعة كافية لخوضها(١).

* * *

وعاش رسول الله ﷺ والمسلمون معه كما وصفهم الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه بقوله ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ...(٢٩)** ﴾(٢).

وأشداء على الكفار تعنى أنهم﴿ **أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ «ورحماء بينهم» تعنى أنهم ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾(٣).

فهى «شدة العزة» والإباء والشموخ واستعلاء الإيمان. وهى «ذلة الرحمة» لا السقوط والتفريط، والمقابلة في التعامل ناتج من «المقابلة أو التضاد بين الفئتين» **المؤمنين والكافرين**. والمبدأ العام الذي يحكم «سلوكيات المؤمنين» جميعًا - **في التعامل مع الآخرين** - هو التوجيه الربانيّ الخالد ﴿ **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٣٩)** ﴾(٤).

ومن ثم كان رسول الله ﷺ حريصا على ألا يستهان بالمسلمين وأن يساء إلى كرامتهم وسمعتهم؛ فهم الأعزة، وهم الأعلون، وكان هذا الحرص سببًا من أسباب زحف جيش المسلمين للقتال في «**مؤتة**»(٥). فقد بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بُصرى(٦) بكتابه، فعرض له «شُرحبيل بن عمرو الغساني»، فلما علم أنه من رسل محمد ﷺ أمر به فضربت عنقه. ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره. فلما بلغه ذلك، اشتد عليه، وندب الناس فأسرعوا، وكان ذلك سبب خروجهم إلى غزوة مؤتة، وكان على الجيش زيد بن ثابت(٧)، وخرج هرقل لقتال المسلمين في مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة، واضطرب المسلمون - وكانوا ثلاثة آلاف - لما رأوا من العدد والعدة، فخطب فيهم عبد الله بن رواحة «**يا قوم والله إن التي تكرهون لَلَّتي خرجتمْ لها تطلبون: الشهادة، وما نقاتلُ الناسَ بعددٍ ولا كثرة، وإنما نقاتلهم بهذا**

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية ٣٢٥.

(٢) سورة الفتح: [٣٩].

(٣) فقد وصف الله المؤمنين في سورة المائدة بأنهم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٤) ﴾ [المائدة: ٥٤].

(٤) سورة آل عمران: [١٣٩].

(٥) مؤتة قرية من قرى البلقاء في حدود الشام. والبلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى.

(٦) بصرى من أعمال دمشق بالشام، وهي قصبة كورة حوران.

(٧) الذهبى: تاريخ الإسلام ٤٠١.

الدين الذين أكرمنا الله به. فإن يظهرنا الله به فربما فعل، وإن تكن الأخرى فهي الشهادة، وليست بشرِّ المنزلتين».

واستشهد القادة الثلاثة الذين حددهم رسول الله ﷺ بالترتيب: زيد بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب، فعبد الله بن رواحة. ونهض بالقيادة خالد بن الوليد، واستطاع بعبقريته العسكرية أن ينقذ المسلمين من مذبحة محققة، وانسحب بهم، ولم يستشهد من المسلمين إلا اثنا عشرة بما فيهم القواد الثلاثة. ولما عاد الجيش إلى المدينة ووصفهم الناس بالفرّار قال عنهم رسول الله ﷺ إنهم **«كرّار لا فرار»** فقد رأى ببصيرته أن «الانسحاب» هو الحل الأمثل، بل هو الحل الوحيد، وعدَّ «تحرفا لقتال» لا فراراً من ساحة الجهاد(١).

ومع ذلك ظلت هذه المعركة تمثل ذكرى حزينة مُرَّة في حياة النبى ﷺ والمسلمين وعاش الروم ومن والاهم في جوّ من الزهْو لهذا النصر الذي أحرزوه، وإن كان ضئيلا، ويكفيهم أن المسلمين لم يحققوا هدفهم المنشود من وراء هذه الحملة.

فأراد رسول الله ﷺ أن يحرم الروم ومن والاهم هذه النشوة المنتفشة، ويعيد للمسلمين سمعتهم وكرامتهم في هذه المنطقة، ويزيل من نفوس المسلمين في المدينة ما يشعرون به من مرارة، فأمر بأعداد جيش لتحقيق هذا الغرض وحتى يكون الدرس أقوى وأوْفَى أمّر عليه ابن الشهيد الأول في موقعة مؤتة (أسامة بن زيد)، ولكن النبي ﷺ لحق بالرفيق الأعلى بعد أن همّ بعث أسامة بالمسير.. وبعده أصر الخليفة أبو بكر رضي الله عنه على تسيير بعث أسامة على الرغم من اعتراض بعض المسلمين على تأمير أسامة لصغر سنه، وطلب أغلبهم الإبقاء على البعث لقتال المرتدين، فقال أبو بكر **«والذي نفسي بيده لوْ ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته»**.

وانطلق بعث أسامة، وقتلوا من الأعداء كثيرين وأسروا، وأحرقوا القرى التى قاومتهم وغنموا ما شاء الله أن يغنموا.. وبذلك نفذ أمر رسول الله ﷺ: «أو يُوطِئ الخيلَ تخومَ البلقاء والدارُوم من أرض فلسطين، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح، وأن يمعن فيهم قتلا، وأن يحرقهم بالنار». وقد أتم ذلك دِراكا، فلم تسبق إلى أعدائه

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧٣ – ٣٨٩. وتاريخ الإسلام للذهبى: ٤٠١ – ٤١٦.
وصحيح البخارى: كتاب المغازى (٦٤) باب (غزوة مؤتة من ارض الشام (٤٤). الأ]اديث (٤٢٦٠ – ٤٢٦٨) – ٧/ ٥٨٣ – ٥٩٠.

أنباؤه، فلما أتمه عاد بالجيش مظفرا إلى المدينة[١]. واستعاد المسلمون هيبتهم فى المناطق الشمالية حيث تخومهم مع الروم، وكان لهذا البعث أثر نفسي داخل الجزيرة العربية كذلك، وهو إضعاف الروح المعنوية للمرتدين، بقدر ما منح المسلمين مزيداً من الثقة بالنفس، والاطمئنان لنصر الله:

«وأدرك أناس في عصر أبي بكر صواب الرأى في إنفاذ تلك البعثة بعد إنفاذها وعودتها، فشاع في الجزيرة العربية خبرها، وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا، وقالوا فيما بينهم «لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء».

فإذا كان بقاء أسامة بالمدينة جائزا لدفع خطر، فإرساله كذلك جائز لدفع خطر مثله، وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة، وهو يومئذ ألزم الدروس[٢].

* * *

فلم تكن العزة الإسلامية واستعلاء الإيمان مجرد شعور وإحساس ينعكس في انفعال يثور عند موقف يبعثه، ومناسبة تهيجه، وبعدها يبرد إلى أن يجدّ جديد، ولكنه - كما رأينا - كان شعورا حيا نابضا متلبسا بنسيج «الشخصية المسلمة»، فهو لا يعرف «التوقيت» كما لا يعرف «التجريد». وبيان ذلك أنه لا يعرف التوقف أو الانقطاع ارتباطا بالمناسبات والمواقف وجودا وعدما، أو حضورا وغيابا، فهو بالنسبة لشخصية المسلم كالعصارة الحية في النبات... من الجذور إلى الأغصان والأوراق والثمار مرورا بالساق، ومن غيرها يتحول النبات إلى حطب متقصف لا حياة فيه.. وكذلك العزة.. يكون الإنسان بدونها هملا كالأنعام.. يقع به الذل والهوان والضيم فلا يثور ولا يدفع عن نفسه:

ولا يقيمُ على ضيمٍ يرادُ بهِ
إلا الأذلان عَيْرُ الحيِّ والوتِدُ
هذا على الضيم مربوط بُرمَّتِهِ
وذا يشجّ فلا يرثي له أحد[٣]

* * *

(١) د. محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر ١٠٥ - ١٠٦.
(٢) عباس العقاد عبقرية الصديق ١٣٠.
(٣) العير (بفتح وسكون) الحمار.. والضيم: الذل والظلم. والرمة: (بضم الراء) الحبل.

وهذا الشعور الحي الدفاق في نفس المسلم يفقد قيمته إذا لم يتكثف ويتبلور في سلوك عملى، فلابدّ أن يكون العمل انعكاساً لهذا الشعور، وهذا ما رأيناه في النماذج السابقة من تاريخ النبي ﷺ، والخليفة الأول أبي بكر الصديق رضى الله عنه(١) ولا عجب إذن أن يذكر القرآن الكريم الإيمان مرتبطًا غالبًا بالعمل الصالح، وأن ينعي في شدة على هؤلاء الذين يعتقدون.. ويقولون ما لا يفعلون، ففي حياتهم يصنعون انفصامًا منكودا بين العقيدة أو الرأى من جهة وبين العمل من جهة أخرى، فيكون التخبط والتناقض والكفر والنفاق والضياع..

* * *

المصادر والمنابع

كالنهر لا ينبع ويتدفق من فراغ كان شعور المسلم بالعزة والاستعلاء الإيمانى، فله مصادره ومنابعه التى يسترفد منها، وبقدر نقاء المنبع وحيويته يكون نقاء النهر وحيويته في تدفقه ومسيرته. والعزة الإسلامية تنبع من مصدرين غنيين متدفقين بالنقاء والطهر والرفعة هما كتاب الله وسنة نبيه من ناحية، والقدوة الحسنة من ناحية أخرى:

أولاً: القرآن والسنة:

لقد تعلم المسلمون - وهم يتلون كتاب الله أن الله سبحانه وتعالى هو مصدر العزة: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾ (٢).

- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾(٣) ومنه تعلموا أنه رب العزة، وأنه المعز المذل الذى يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء.

ومنه تعلموا أن العزة مرتبطة ارتباطًا وثيقا بالإيمان القوي الصادق.

- ﴿...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤)

فإذا كان الأمر كذلك فلا عزة لكافر ولا منافق، ولا لطالب عزة عند كافر أو منافق أو عند غير الله.

وتعلم المسلمون من القرآن الفرق بين العزة بمفهومها السوي الصحيح. و «العزة» بمفهومها الشاذ المنحرف الموكوس، وهى في حقيقتها غرور وتكبر وزيف وادعاء، واستعلاء بالشيطان: كعزة فرعون وكفرة قارون، وعزة أبى جهل، وهي عزة قادت أصحابها إلى النار(٥).

---

(١) نسوق أمثلة أخرى في ختام هذا الفصل للعزة الإسلامية في أنقى صورها وارفعها وأقواها.

(٢) سورة يونس: [٦٥].

(٣) سورة فاطر: [١٠].

(٤) سورة المنافقون: [٨].

(٥) عالج البحث كل هذه المعاني وغيرها في الفصلين الثالث والرابع.

وأتى الرسول ﷺ برسالة التوحيد، ونزل القرآن ليرسخ هذه الدعوة التى تمثل الركن الأول من الإسلام «**أشهد أن لا إله إلا الله..**».

وعلم الرسول ﷺ المسلمين أن توحيد الله، هو الطريق السديد للعزة. يقول تعالى: **﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾** (١).

فيروى أن النبي ﷺ كان يسمى هذه الآية آية **العز** وكان إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية(٢).

فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كانت له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل سائر الصفات(٣).

وقد ألحّ القرآن في عشرات من الآيات على الدعوة إلى وحدانية الله ونفي الشريك والشبيه، وإقرار هذه الواحدة في عشرات الآيات المكية والمدنية. فمن الآيات المكية:

- **﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾**(٤).
- **﴿ .. أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾**(٥).
- **﴿ .. قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾**(٦).
- **﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) ﴾**(٧).
- **﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾**(٨).

ومن الآيات المدنية:

- **﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) ﴾** (٩).

---

(١) سورة الإسراء: [١١١].
(٢) انظر تفسير النسفى ٢/٣٣١.
(٣) فتاوى ابن تيمية ٣/٢١ وانظر ١/٨٢.
(٤) سورة الإخلاص: [١ - ٤].
(٥) سورة يوسف: [٣٩].
(٦) سورة الكهف: [١١٠].
(٧) سورة ص: [٦٥].
(٨) سورة غافر: [١٦].
(٩) سورة البقرة: [١٦٣].

- ﴿ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾(١).

- ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ ﴾(٢).

والإيمان بالله الواحد وهو القوى القادر المتعال يكون مصدر قوة العبد وعزته لأن العزة لله جميعًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله. «فالحول والقوة التى يرجى لأجلهما المخلوق ويخاف إنما هما لله، وبيده في الحقيقة، فكيف يخاف ويُرجى من لا حول له ولا قوة؟! بل خوف المخلوق المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان، ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه، فما شاء الله كان ولابد، وما لم يشأ لم يكن، ولو اتفقت عليه الخليقة(٣).

وتوحيد الله سبحانه وتعالى -كما يقول ابن القيم- مفزع أعداء الله وأوليائه - فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾(٤).

وأما أولياؤه فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها، ولذلك فزع إليه يونس، فنجاه الله من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباع الرسل، فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة.

ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق، لم ينفعه لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل. هذه سنة الله في عباده.

فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون - التى ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه - بالتوحيد. فهو مفزع الخليقة وملجؤها، وحصنها وغياثها(٥).

* * *

وتوحيد الله سبحانه وتعالى يقتضى ابتداء الكفر بما يعبد من دون الله. وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُم ما له ودمه، وحسابه على الله عز وجل»(٦).

وهذا من أعظم ما يبين معنى **«لا إله إلا الله»** فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون

---

(١) سورة النساء: [١٧١].
(٢) سورة الرعد: [١٦].
(٣) ابن القيم: الفوائد ٨١.
(٤) سورة العنكبوت: [٦٥].
(٥) ابن القيم: السابق ٨٢.
(٦) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان. حديث ٣٧ -١/ ١٧٩.

الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه(١).

* * *

وانطلاقًا من الإيمان بوحدانية الله جاء توكل المسلمين على الله والإيمان بقضائه وقدره ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** (٥١)﴾(٢) وكان لهذا الوعي الإيماني السديد أكبر الأثر في نهوض المسلمين بتبعة الجهاد، وتبعات الرسالة وتبعات الحياة غير هيابين ولا وجلين. وعلى هذا رباهم رسول الله ﷺ فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

* * *

ثانيًا: القدوة الحسنة:

يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** (٢١)﴾(٣).

والأسوة هو القدوة.. وقد وصف الله سبحانه وتعالى الأسوة بأنها حسنة، وقد وجهتنا الآية إلى أن التأسي – بمفهومه النافع الصحيح– يحتاج ممن يريده– حتى يحقق ما ينشده بهذا الاهتداء – بأن يقصد بعمله وجه الله، «فكل عمل يعمله العبد، ولا يكون طاعة لله وعباده، وعملا صالحًا فهو باطل.. وكل عمل لا يعين الله العبد عليه، فإنه لا يكون ولا ينفع، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم، فلذلك أمر العبد أن يقول ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** (٥)﴾(٤).

والمسلم مطالب بأن يقتدى بالأنبياء والرسل في إيمانهم وصبرهم وثباتهم على الحق. يقول سبحانه وتعالى ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ (٥) وعنه وعن المؤمنين معه يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ**﴾(٦).

واتساع دائرة الاقتداء تدل على عظمة الإسلام وسماحته، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

---

(١) الإمام محمد بن عبد الوهاب: كتاب التوحيد ٣٥.

(٢) سورة التوبة: [٥١].

(٣) سورة الأحزاب: [٢١].

(٤) سورة الفاتحة: [٥] – فتاوى ابن تيمية ٨/٤٨.

(٥) سورة الممتحنة: [٤].

(٦) سورة الممتحنة: [٦].

وقد كان رسول الله ﷺ مثلاً أعلى لأصحابه قولاً وعملاً وخلقًا. لذلك كان على المسلم أن يتخذ منه ﷺ القدوة والأسوة، وللسلف الصالح في ذلك أقوال وأعمال طيبة لا يتسع المقام لإيرادها.

وما دمنا مأمورين بالنظر والاعتبار، وإعمال الفكر كان علينا أن نقرأ سيرة رسول الله ﷺ، وتاريخ أصحابه قراءة وعي وإيمان فقد عاشوا خير القرون حقًا، وكانوا هم الأنجم الزواهر يُقتدى ويُهتدى بهم.

وفي الصفحات التالية يقدم البحث نماذج شامخة «للعزة الإسلامية» وعلينا أن نفخر بها ونقتدى:

أبو بكر يرفض المساومة والابتزاز

واجه الخليفة أبو بكر رضى الله عنه الردة والمرتدين بحسم قوي وعزم صادق، فلم يرضى من المرتدين - كما يقول ابن مسعود - إلا بالخُطة المخْزية أو الحرب المجْلية، فأما **الخُطَّة المخْزية** فأن يقروا بأن من قتل منهم في النار، ومن قتل منا في الجنة، وأن يدوا قتلانا، ونغنم ما أخذنا منهم، وأن ما أخذوا منا مردود علينا. وأما **الحرب المجْلية** فأن يخرجوا من ديارهم(١).

* * *

وقدم على أبي بكر عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس في رجال من أشراف العرب، فدخلوا على رجال من المهاجرين فقالوا «إنه قد ارتد عامة من وراءنا عن الإسلام، وليس في أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالكم ما كانوا يؤدون إلى رسول الله ﷺ، **فإن تجعلوا لنا جُعلا نرجع فنكفيكم من وراءنا**».

فدخل المهاجرون والأنصار على أبي، فعرضوا عليه ما عرضوا عليهم، وقالوا نرى أن تُطعم الأقرع وعيينة طُعْمة يرضيان بها، ويكفيانك من وراءهما، حتى يرجع إليك أسامة وجيشه، ويشتد أمرك؛ فإنا اليوم قليل في كثير، ولا طاقة لنا بقتال العرب».

قال أبو بكر: هل ترون غير ذلك؟ قالوا: لا. قال أبو بكر: إنكم قد علمتم أنه كان من عهد رسول الله ﷺ المشورة إليكم فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم، ولا نزل به الكتاب عليكم، وإن الله لن يجمعكم على ضلالة، وإني سأشير عليكم، فإنما أنا رجل منكم، تنظرون فيما أشير به عليكم، وفيما أشرتم به عليّ، فتجتمعون على أرشد ذلك، فإن الله يوفقكم. وأما أنا فارى أن ننبذ إلى عدونا ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴿٢٩﴾﴾(٢)، **وأن لا ترشوا مع الإسلام أحداً وأن نتأسى برسول الله ﷺ، فنجاهد عدوه كما جاهدهم. والله لو منعوني عقالاً لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه**، فانتمروا يرشدكم الله، فهذا رأى. وأما قدوم عيينة وأصحابه إليكم فهذا أمر لم يغب عنه عيينة!! هو راضه ثم جاء له! ولو رأوا ذباب السيف لعادوا إلى ما خرجوا منه، أو أفناهم السيف فإلى النار، قتلناهم على حق منعوه وكفر». فبان للناس وجه أمرهم، وقالوا لأبي بكر - لما سمعوا رأيه «أنت أفضلنا رأياً، ورأينا لرأيك تبع».

فأمر أبو بكر الناس بالتجهز، وأجمع على المسير بنفسه لقتال أهل الردة(٣).

---

(١) انظر الصعيدى: القضايا الكبرى في الإسلام ٧٤. (٢) سورة الكهف: [٢٩].

(٣) سليمان الكلاعي: الاكتفا في مغازي المصطفى ١٣-١٤.

صوت العزة الإسلامية فى مواجهة.. غرور الفرس

فى أحداث سنة ١٤ هـ يسجل الطبرى عدداً من اللقاءات بين مبعوثين من المسلمين ورستم قائد الفرس ومنها اللقاءات الآتية:

١ - بين ربعي بن عامر ورستم قائد الفرس:

طلب رستم قائد جيش الفرس إلى سعد بن أبى وقاص أن ابعث إلينا رجلاً نكلمه ويكلمنا فبعث إليه ربعي بن عامر، فخرج ربعى ليدخل على رستم عسكره فاحتبسه الذين على القنطرة، وأرسل إلى رستم لمجيئه، فاستشار عظماء أهل فارس، فقال: ما ترون؟ أنباهى أم نتهاون! فأجمع ملؤهم على التهاون، فأظهروا الزبرج، وبسطوا البسط والنمارق، ولم يتركوا شيئًا، ووضع لرستم سرير الذهب، وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب. وأقبل ربعى يسير على فرس له زباء[١] قصيرة، معه سيف له مشوف[٢]، وغمده لفافة ثوب خلق ورمحه معلوب[٣] بقد، معه حجفة[٤] من جلود البقر على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف، ومعه قوسه ونبله. فلما غشى الملك، وانتهى إليه وإلى أدنى البسط، قيل له: أنزل، فحملها على البساط، فلما استوت عليه، نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما، ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه؛ وإنما أروه التهاون وعرف ما أرادوا، فأراد استحراجهم[٥]، وعليه درع له كأنها أضاة[٦] ويلمقه[٧] عباءة بعيره، قد جابها[٨] وتدرعها، وشدها على وسطه بسلب[٩] وقد شد رأسه بمعجزته؛ وكان أكثر العرب شعرة، ومعجرته نسعة بعيره؛ ولرأسه أربع ضفائر؛ قد قمن قيامًا، كأنهن قرون الوعلة. فقالوا: ضع سلاحك، فقال: إنى لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم، أنتم دعوتمونى، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت. فأخبروا رستم؛ فقال: ائذنوا له؛ هل هو إلا رجل واحد! فأقبل يتوكأ على رمحه، وزُجه نصل يقارب الخطو، ويزج النمارق والبسط؛ فما ترك لهم نمرقة ولا بساطا إلا أفسده وتركه منهتكًا مخرقًا[١٠]؛ فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب[١١] القعود على زينتكم

---

(١) زباء: طويلة الشعر كثيرته. (٢) المشوف: المجلو.

(٣) يقال: علب الرمح، فهو معلوب، أى حزم مقبضه بعلياء البعير، وهو عنقه.

(٤) الحجفة: الترس. (٥) ز: «استخراجهم».

(٦) الأضاة: الغدير. (٧) اليلمق: القباء.

(٨) فى اللسان: «جبت القميص. قورت جيبه». (٩) السلب: ليف المقل.

(١٠) ابن حبيش: «وتركها متهتكة منخرقة». (١١) النويرى: «نستحل».

هذه. فكلمه، فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً؛ حتى نفضى إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقى. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم؛ فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا! قال: نعم، كم أحب إليكم؟ أيوماً أو يومين؟ قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. وأراد مقاربته ومدافعته، فقال: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا، ألا نمكن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر فى أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك أو الجزاء، فنقبل ونكف عنك؛ وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك؛ أو المنابذة فى اليوم الرابع؛ ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، أنا كفيل لك بذلك على أصحابى وعلى جميع من ترى. قال: أسيدهم أنت؟ قال: لا؛ ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض؛ يجير أدناهم على أعلاهم(١).

٢ - بين المغيرة بن شعبة ورستم قائد الفرس

وفي اليوم التالي طلب رستم من سعد أن يبعثوا إليه بآخر فبعث إليه بالمغيرة بن شعبة، **والقوم في زيّهم، عليهم التّيجان والثّياب المنسوجة بالذهب، وبسطهم على** غَلْوة(٢) لا يصلُ إلى صاحبهم؛ حتى يمشيَ عليهم غَلْوةً؛ وأقبل المغيرة **وله أربع ضفائر يمشي؛ حتى جلس معه على سريره ووسادته؛ فوثبوا عليه فترتروه**(٣) **وأنزلوه ومغثوه**(٤). فقال: كانت تَبْلغنا عنكم الأحلام؛ ولا أرى قوماً أسفَه منكم! إنَّا معشر العرب سواءٌ؛ لا يستعبد بعضنا بعضاً إلاَّ أن يكون محارباً لصاحبه؛ فظننت أنَّكم تُواسون قومَكم كما نَتواسى؛ وكان أحسن مِن الذي صنعتم أن تُخبروني أنَّ بعضكم أربابُ بعض، وأنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه؛ ولم آتكم؛ ولكن دعوتموني اليوم؛ علمت أن أمركم مضمحلّ، وأنّكم مغلوبون؛ وأن مُكلًا لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٨/٥-٥٢١.

(٢) الغلوة: قدر رجعة السهم.

(٣) ترتروه: حركوه.

(٤) مغثوه: ضربوه ضرباً ليس بالشديد.

فقالت السّفلة: صدَق والله العربيّ، وقالت الدّهاقين: والله لقد رَمى بكلام لا يزال عبيدُنا ينزعون إليه؛ قاتل الله أوّلينا، ما كان أحمقهم حين كانوا يصغّرون أمر هذه الأمّة! فمازحه رستُم ليمحُوَ ما صُنع، وقال له: يا عربيّ؛ إنّ الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك؛ فالأمر على ما تحبّ من الوفاء وقبول الحقّ؛ ما هذه المغازل التي معك؟ قال: ما ضرّ الجمرة ألاّ تكون طويلة! ثم راماهم. وقال: ما بال سيفك رثًّا! قال: رثُّ الكسوةِ، حديد المضربة. ثم عاطاه سيفه، ثم قال له رستم: تكلّم أم أتكلّم؟ فقال المغيرة: أنتَ الّذي بعثت إلينا، فتكلّم، فأقام الترجمان بينهما، وتكلّم رستم، فحمِد قومه، وعظّم أمرهم وطوّله. وقال: لم نزل متمكّنين في البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافًا في الأمم؛ فليس لأحدٍ من الملوك مثل عزّنا وشرفنا وسلطاننا، نُنصَر على النّاس ولا يُنصرون علينا إلاّ اليوم واليومين، أو الشهرَ والشهرين؛ للذنوب؛ فإذا انتقم الله فرضيَ ردّ إلينا عزّنا، وجمعْنا لعدونا شرّ يوم هو آتٍ عليهم.

ثم إنه لم يكن في النّاس أمة أصغر عندنا أمرًا منكم؛ كنتم أهلَ قَشف ومعيشة سيّئة، لا نراكم شيئًا ولا نعدُّكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم، وأصابتكم السَّنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشيء من التَّمرْ والشعير ثم نردّكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلاّ ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا آمرُ لأميركم بكسُوة وبغلْ وألف درهم، وآمرُ لكلّ رجل منكم بوقرِ تمْرٍ وبثوبين، وتنصرفون عنّا، فإني لست أشتهي أن أقتُلَكم ولا آسركم.

فتكلّم المغيرة بن شُعبة، فحمِد الله وأثنَى عليه، وقال :إنّ الله خالق كلّ شيء ورازقه؛ فمن صنع شيئًا فإنما هو الذي يصنعه هو له. وأمَّا الذي ذكرت به نفسَك وأهلَ بلادك؛ من الظّهور على الأعداء والتمكّن في البلاد وعُظْم السلطان في الدنيا؛ فنحن نعرفه، ولسنا نُنكره؛ فالله صنعه بكم؛ ووضعه فيكم؛ وهو له دونكم؛ وأمَّا الذي ذكرت فينا من سُوء الحال، وضيق المعيشة واختلاف القلوب؛ فنحن نعرفُه؛ ولسنا ننكره؛ والله ابتلانا بذلك، وصيَّرنا إليه، والدنيا دُوَل؛ ولم يزل أهلُ شدائدها يتوقَّعون الرّخاء حتى يصيروا إليه؛ ولم يزل أهل رخائها يتوقَّعون الشَّدائد حتى تنزل بهم، ويصيروا إليها؛ ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شُكر، كان شكركم يقصّر عمّا أوتيتّم، وأسلمكم ضَعْف الشكر إلى تغيّر الحال؛ ولو كنّا فيما ابتُلينا به أهلَ كفر؛ كان عظيم ما تتابع علينا

مستجلبًا من الله رحمة يرفِّه بها عنَّا، ولكنّ الشأن غيرُ ما تذهبون إليه؛ أو كنتم تعرفوننا به؛ إنَّ الله تبارك وتعالى بعثَ فينا رسولاً... ثم ذكر مثلَ الكلام الأوّل؛ حتى انتهى إلى قوله: وإن احتجت إلينا أن نمنعك فكنّ لنا عبداً تؤدّي الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإلاَّ فالسيف إن أبيت! فنخر نخرة، واستشاط غضبًا، ثم حلَف بالشَّمْس لا يرتفع لكم الصبّح غداً حتى أقتكلم أجمعين(١).

٣ - بين المغيرة بن شعبة وبندار العلج

- **ولما اجتمعت جيوش المسلمين بنهاوند (سنة ٢١هـ)** وأميرهم النعمان بن مقرن المزني أرسل «**بندار العلج**» إليهم أن أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبة... وكالعادة كان العلج هو ومن معه في شارة ومظهر، وإذا هو على سرير من ذهب،وعلى رأسه التاج.ويصف المغيرة ما حدث قائلا: فمضيت كما أنا ونكّسْت، فدفعت ونُهنهت،فقلت: الرسل لا يفعل بهم هذا، فقالوا: إنما أنت كلْب، فقلت: معاذ الله! لأنا أشرف في قومي من هذا في قومه؛ فانتهروني، وقالوا: اجلس؛ فأجلسوني. وتُرجم له قوله: إنكم معشرَ العرب أبعدُ الناس من كلّ خير، وأطول الناس جوعًا،وأشقى الناس شقاء، وأقذر الناس قَذراً، وأبعده داراً؛ وما منعني أن آمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشّاب إلاّ تنجُّسًا لجيَفكم؛ فإنكم أرجاس؛ فإن تذهبوا نُخَلّ عنكم، وإن تأتُوا نرِكم مصارعَكم.

قال: فحمدتُ الله، وأثنيت عليه، فقلت: والله ما أخطأتَ من صفتنا شيئًا، ولا من نعتنا، إنْ كنا لأبعدَ الناس داراً، وأشدَّ الناس جوعًا، وأشقى الناس شقاء، وأبعد الناس من كلّ خير، حتى بعث الله عزّ وجلّ إلينا رسولَه ﷺ؛ فوعدنا النصر في الدّنيا، والجنة في الآخرة؛ فوالله مازلنا نتعرّف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتحَ والنصر؛ حتى أتيناكم؛ وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبَكم على ما في أيديكم؛ أو نقتل بأرضكم.

فقال: أما والله إنّ الأعور قد صَدقكم الذي في نفسه. قال المغيرة: فقمتُ وقد والله أرعبتُ العِلج جَهدِي(٢).

* * *

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢١ - ٥٢٣.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١١٨.

هارون الرشيد يواجه كلب الروم

جرى الصلح بين الرشيد وبين ملكة الروم «ريني» بعد حروب شديدة دارت بينهما، فثارت الروم على ريني،وملكت عليها نِقْفور. فلما استقر واستوثقت له الروم بالطاعة كتب إلى هاورن الرشيد (سنة ١٨٧هـ) : «من نقفور ملك الروم، إلى هارون ملك العرب، أما بعد : فإن الملكة التي كانت قبلي، أقامتك مقام الرُّخ، وأقامت نفسها مقام البيدق(١)، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثالها إليها؛ لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن؛ فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قِبَلك من أموالها، **وافْتَدِ نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك»**.

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب، حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفًا من زيادة قول أو فعل يكون منهم، ودعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام».

* * *

ثم شخص من يومه، وسار حتى أناخ بباب **«هِرَقْلة»**، ففتح وغنم، واصطفى وأفاد، وخرب وحرّق، واصطلم. **فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة، فأجاب الرشيد إلى ذلك**.

فما رجع من غزوته، وصار **بالرقة** نقض نقفور العهد، وخان الميثاق، وكان البرد شديداً، فيئس نقفور من عودة الرشيد إليه. ولكن خاب أمله فإن الرشيد لما علم بغدره كرّ راجعًا إليه «في أشد محنة، وأغلظ كلفة» حتى أناخ بفنائه، فلم يبرح حتى رضى، وبلغ ما أراد(٢).

---

(١) الرخ والبيدق من قطع الشطرنج.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٧ – ٣١٠.

السلطان التركي لم يفرط فــي فلسطين

مازال أبناؤنا – في المدارس والجامعات يلقنون معلومات وأخبارا تأخذ صورة الجسم كأنها مسلمات وبدهيات غير قابلة للمناقشة، ومنها في نطاق التاريخ ما يتعلق بالدولة التركية أو الخلافة العثمانية:

– فهي كانت نموذجا للظلم والظلام، والغدر والتخلف والضياع.

– والسلطان عبد الحميد الثاني – بصفة خاصة – (١٨٤٢ – ١٩١٨) كان نموذجا للضلال وضيق الأفق، والظلم والاستبداد والسادية.

– ومصطفى كمال (أتاتورك) الذي ألغى الخلافة كان بطلا مغوارا، ومنقذا لتركيا من الظلم والظلام.

ويستر عن أبنائنا حقائق لا تنكر منها:

– أن الخلافة العثمانية كانت تمثل سدا منيعا تحطم عليه المد الصليبي طيلة أربعة قرون.

– وأن المسلمين في مجموعهم لم يكونوا ينظرون إلى الخلافة العثمانية كنظراتنا حاليا للاستعمار.

– وأنها أحرزت انتصارات تفوق ما يروي في القصص الخيالية... ويكفيها فخرا فتح القسطنطينية.

* * *

أقدم هذه الإلماعات بين يدي موقف من مواقف **«العزة الإسلامية»** للسلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى الخلافة من سنة ١٨٧٦ إلى سنة ١٩٠٩م، وتكالبت عليه قوى الماسونية والصهيونية العالمية والقوى الصليبية. وأعنى به موقفه من الصهيونية، وخلاصته:

أن الصهاينة في موتمربال سنة ١٨٩٧ قرروا اختيار فلسطين لإقامة الوطن القومي اليهودي، وكانت فلسطين في نطاق الخلافة العثمانية في الوقت الذي بدأ فيه السلطان عبد الحميد يدعو بجدية إلى «الجامعة الإسلامية» التي تجمع الشعوب الإسلامية والمسلمين في كل بقاع الأرض.

واستغل الصهاينة الأزمة المالية التي تعانيها «الدولة العلية»، وحاول «هرتزل» رأس الصهاينة مستعينا بالماسون، وبيهود الدونمة في سالوينك (وهم الذين هاجروا من الأندلس واعتنقوا الإسلام تقية)، ومستعينا بأعداء الخلافة في داخل تركيا، ومستعينا بالرئيس الألماني «بسمارك» وكانت ألمانيا حليفة لتركيا.. حاول هرتزل تحقيق هدفه الخبيث، وحاول أن يلتقي السلطان عبد الحميد، وهو يرفض بشدة، وأخيرا سمح له باللقاء، ودار الحديث حول المشكلات التي تعاني منها الدولة، وعن تصفية الدين العام، وهنا عرض «هرتزل» على السلطان عبد الحميد خمسين مليونا من الجنيهات الذهبية لخزينة الدولة العلية، مقابل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، وكان الخليفة قد أصدر قرارا بمنع هجرة أى يهودي إلى فلسطين، **وطلب هرتزل كذلك** بمنح اليهود جزءا من فلسطين لإقامة وطن عليه.

ولكن عبد الحميد السلطان المسلم رفض العرض بقوة، وكان – من شدة حرصه على فلسطين – قد قام بعزل سنجق (حاكم) القدس وإخضاع المنطقة لإدارته المباشرة. خوفا من الإغراءات الصهيونية **على أتباعه**.

ماذا قال السلطان لهرتزل؟.

لقد سجل هرتزل ما قاله السلطان في يومياته.. فكتب بالحرف الواحد «... وقال لي السلطان: إني لست مستعدا أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى غير أهلها، فالبلاد ليست ملكي، بل هي ملك شعبي الذي روى أرضها بدمائه، وليحتفظ اليهود بملايينهم الذهبية...».

وبعدها أخذ التآمر على الخلافة أبعادا قذرة من الغدر والخيانة وتكثيف القوى لضرب الأمة الإسلامية وعزلها عن دينها[1]، وانتهاك حرماتها.. ونهب فلسطين... وليس جزءاً منها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) انظر: المسألة الشرقية لمحمود الشاذلي. والسلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية لأنور الجندي، والدولة العثمانية للدكتور محمد أنيس.

الخـــاتمـــة

مـــن الدونية[1] إلى العـــزة

ولكـــن كيـــف؟

رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف كان العالم يعيش في دونية عارمة في كل مناحي الحياة:

دونيـة في التـشـريع الذى حُـرم روح العـدل ولـم يرع إلا مـقـام السـادة والأغنيـاء والأشراف.

ودونيـة في العقيـدة ما بين وثنية ضارية، ويهودية مشوهة، ونصرانيـة منحرفة عن مسارها الرباني النقى الصافي، زيادة على مذهبيات مدمرة كالمانوية والمزركية والبوذية.

ودونية في النظم والعلائق الاجتماعية ما بين سيادة وعبودية.. سيد شريف يملك كل شيء، وعبد ضائع لا يملك شيئًا.. بل كان يعد «واحداً من الأشياء».

ودونية في مزاولة الجنس ففي بعض العصور والمجتمعات رأينا كيف هبط الإنسان من هذه الناحية إلى درك أشد سفولاً من درك البهائم والعياذ بالله.

ودونية في العلاقات الدولية التى كان يحكمها قانون الغاب.. فالسيادة للمنتصر الغالب دون مراعاة لمنطق من رحمة وعدل.

ومن تراكم هذه «الدونيات» اهتزت، بل انحرفت قائمة القيم والأخلاقيات.. حتى جاء الإسلام فأخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وأعاد الاتزان والتوازن إلى المجتمع الإنساني ارتكازاً على القرآن والسنة وانطلاقًا منهما:

- فجعل المعبود هو الواحد الأحد خالق السموات والأرض.

- وخاطب العقل ودعا إلى «إحيائه» وتمكينه من مزاولة مهامه التى خلقه الله من أجلها،

---

(١) جاء في لسان العرب: دون نقيض فوق، وهو تقصير عن الغاية، والدون: الحقير الخسيس.

يقول شاعر:

إذا ما علا المرءُ رام العلاء ... ويقنع بالدون من كان دونا

[لسان العرب ٢/١٤٦٠]

وبه يكون النظر والوعى والاعتبار.

– ودعا إلى «اعتبار الذات» واستشعار العزة والكرامة فالإنسان هو خليفة الله في الأرض دون سائر خلقه من جن وملائكة.

– وحرر الإنسان من الرق بوضع تشريعات تجفف منابعه بالتدريج حتى كأنه لا رق ولا استعباد.

– ونهى عن المفاسد التى تقود الإنسان إلى التلف والإتلاف والهلاك؛ وتقود المجتمعات إلى التدمير ومنها الخمر والزنى وأكل أموال الناس بالباطل.

ودعا إلى «إنسانية» العلائق بين أفراد المجتمع الواحد، وبين المجتمع كله كشخصية اعتبارية والمجتمعات الأخرى.

– ودعا إلى تحقيق السلام الاجتماعى والسلام الدولي والوفاء بالعقود والعهود فلا خيانة ولا غدر ولا غلول ولا عدوان.

– ونظم العلاقة الجنسية وجعل لها ضوابطها التى تهدف إلى «تكوين» الأسرة النظيفة العفيفة.

– وجعل العلاقة بين الحاكم والمحكوم تقوم على العدل والشورى.. وأن تكون الطاعة فى غير معصية.

– وشرع الجهاد لإحقاق الحق وإبطال الباطل بلا عدوان ولا عداء حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

– وجعل منطق الدعوة هو الحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة.

– وحرّر المرأة وأعطاها من الحقوق ما لم تمنحها القوانين الحديثة.

والخلاصة أن الإسلام أهدى البشرية «منهاجًا نموذجيًا متكاملاً للحياة».. منهاجًا يضمن للإنسان الحياة الحرة الكريمة النقية. ونموذجيته لم تعتمد على مثالية «يوتوبية» خيالية يستحيل أخذ النفس بها، كما لم تعتمد على واقعية لصيقة بالتراب، ولكنه نظام يوازن بين المثالي والواقعي، ويوفق بينهما مراعيًا في تشريعاته قدرات الإنسان وإمكاناته فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى. فالمسئولية فيه شخصية لا تتعدى شخصية الوازر

وصدق الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(١).

على هذا النظام قامت دولة الإسلام، واستطاعت بالحق والعدل أن تدك القوتين العظميين فارس والروم، وأن تقدم للدنيا عطاء حضاريا عظيمًا لم تعرف البشرية له مثيلاً من قبل.

ثم أصيبت الأمة الإسلامية بالغزو التتاري والغزو الصليبى، ثم الاستعمار الأوروبى الحديث، ثم كانت النكبة الكبرى: زرع ذلك الورم الخبيث المسمى إسرائيل في جسم الأمة العربية.

لقد استطاع المسلمون أن يهزموا الصليبيين هزيمة نكراء فى حطين، ويهزموا التتار في عين جالوت، ومن بقى منهم اعتنق الإسلام وذاب فى أمة المسلمين.

* * *

ولكن دخل العرب والمسلمون دائرة الذل بزرع بنت السفاح إسرائيل في فلسطين فكانت هزيمة ١٩٤٨، ثم هزيمة ١٩٥٦، ثم هزيمة ١٩٦٧.. منظومة من الهزائم حققتها إسرائيل بالتواطؤ مع الصليبية العالمية والقوى الأمبريالية، وتحقق فينا حديث رسول الله ﷺ عن توبان رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ **يوشك الأممُ أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت**(٢).

وأعتقد أننا وصلنا إلى هذه الحال أو قريبا منها، وتحقق فينا «ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم». فالواقع السياسي والعسكرى الذى نعيشه يقول إن أعداءنا يضربون ويضربون وكأنما العرب والمسلمون لا وجود لهم.

ولنتأمل ما روته زينب بنت جحش رضى الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ يومًا فزعا محمراً وجهه، يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب؛ فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه – وحلّق بإصبعيه الإبهام والتى تليها، قالت فقلت: يا

(١) سورة الإسراء: [١٥].

(٢) رواه أبو داود فى كتاب الملاحم باب تداعي الامم على الإسلام ٤/ ١٠٨ حديث ٤٢٩٧ وأحمد بإسناد صحيح. حديث ٢٢٢٩٦-١٦/ ٢٩٥.

رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم إذا كثر الخبث(١) .

والخبث اسم جامع لكل مفسدة، وكثرة الخبث يقطع بفساد القلوب والضمائر وسيادة الشيطان والاستجابة له.. وكان الشيطان هو رسول ما تتعرض له أمتنا من غزو معنوي في مجال الفكر والعقيدة والتعليم والاقتصاد والملبس. والهدف هو تخريب شخصية المسلم وقطع الصلة بينه وبين أصوله الكريمة الطاهرة، وأصبح «معيار التحضر» هو تقليد الغربي.. تقليداً أعمى في أمور قليلها نافع وغالبها مضر مدمر. وبذلك تضيع الهوية العربية والإسلامية، وأصبح أعداء الإسلام ينظرون إلينا نظرة «فوقية» تتفجر بالغرور والاستكبار، وهبطنا -نحن العرب والمسلمين- إلى درك «الدونية» ولم يعد لنا عند غيرنا حساب أو اعتبار.

وأنتج الغزو المعنوى رجالاً من «المسلمين» يسيرون على دربه وينفذون مخططه وكأنهم هؤلاء الذين وصفهم رسول الله ﷺ فى حديث حذيفة بأنهم «دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.. هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا»(٢) فمن هؤلاء من ينكر تحكيم الإسلام وإيثار القوانين الوضعية عليه، ومنهم من ينكر بعض ما جاء به الإسلام كالحدود بزعم أنها غير مناسبة لعصرنا الحاضر عصر العلم والتقنية، ومنهم من ينكر السنة ويقول «عندنا القرآن يكفينا»، وكأنما كان رسول الله ﷺ ينظر إلى عصرنا هذا ويقول فيما رواه عنه عمرو بن معدى كرب «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعاناً على أريكته، يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام

---

(١) رواه البخارى في كتاب الفتن (٩٢) باب قول النبى: ويل للعرب (٤) ح ٧٠٥٩-١٣/١٣.
ومسلم فى كتاب الفتن وأشراط الساعة ح٢-٥/ ٧٣٠ واللفظ لمسلم. وقال الإمام النووي: والخبث فسره الجمهور بالفسوق والفجور، وقيل المراد الزنا خاصة، وقيل أولاد الزنا، والظاهر أنه العاصى مطلقًا. وقال ابن حجر صاحب فتح البارى: إنما خص العرب بالذكر لأنهم أول من دخل الإسلام، وللإنذار بأن الفتن إذا وقعت كان الهلاك أسرع إليهم. وجاء فى لسان العرب أصل «الخبث» في كلام العرب المكروه، فإن كان من الكلام فهو الشتم، وإن كان من الملل فهو الكفر» وإن كان من الطعام فهو الحرام، وإن كان من الشراب فهو الضار، ومنه قيل لما يرمى من منفي الحديد: الخبث.
[لسان العرب ٢/ ١٠٨٩].

(٢) انظر حديث حذيفة بن اليمان كاملاً في البخارى كتاب المناقب (٦١) - حديث ٣٦٠٦-٦/ ٧١٢. ومسلم كتاب (الإمارة) (٣٣). حديث ٥٢-٤/ ٥١٤. وابن ماجه: كتاب الفتن (٣٦) . باب العزلة (١٣) حديث ٣٩٧٩-١٣ والحاكم في المستدرك: كتاب الفتن والملاحم -حديث ٨٥٣٣-٤/ ٥٤٨. وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وصححه الذهبى فى التلخيص.

فحرموه(١)...».

* * *

إنه واقع مرٌّ منكود ولكن الاستسلام لهذا الواقع يعدّ في ذاته خيانة، بل يعد مروقًا من دين الله الذى أكرمنا الله به لأن الاستسلام يعد «يأسًا عمليًا»، والمسلم الحق لا يعرف سبيلاً إلى اليأس ولا يعرف اليأس إليه سبيلا، فلا يجتمع يأس وإيمان فى قلب واحد؛ لأن اليأس من صفات الكافرين والضالين. قال تعالى على لسان يعقوب لأبنائه ﴿... وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾(٢). وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦)﴾(٣).

وكان رسول الله ﷺ يزرع الأمل دائمًا في قلوب المسلمين حتى فى أشد الأوقات مشقة وضيقًا وكروبا كما رأينا يوم الخندق وقد قال فيه تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢)﴾(٤).

فى هذه الأيام المكروبة تعترض صخرة معول رسول الله ﷺ هو وأصحابه يحفرون الخندق، فيخرج منها ثلاث «برْقات»، فيقول ﷺ إنى رأيت في الأولى قصور اليمن ثم رأيت في الثانية قصور الشام، ورأيت في الثالثة قصر كسرى الأبيض بالمدائن، وجعل يصفه لسلمان الفارسى، فقال صدقت، والذى بعثك بالحق إن هذه لصفته، وأشهد أنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ هذه فتوح يفتحها الله عليكم بعدي، يا سلمان لتفتحُنّ الشام، ويهرب هرقل إلى أقصى مملكته، وتظهرون على الشام، ولا ينازعكم أحد، ولتفتحن اليمن، ولتفتحن هذا المشرق، ويقتل كسرى، فلا يكون كسرى بعده(٥).

لقد كانت قوة الكفار تفوق في عددها وعديدها جيش المسلمين، فقد كان جيش الكفار أكثر من ثلاثة أضعاف جيش المسلمين..

كان الجيش اللجب من قريش وبني سليم وبنى فزارة وأشجع وبنى مرة.. وغيرهم، ونقض بنو قريظة عهدهم مع النبى ﷺ.. زيادة على محاولة تثبيط المنافقين هم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده – حديث ١٧١٠٨ بإسناد صحيح ١٣/ ٢٩١.
(٢) سورة يوسف: [٨٧].
(٣) سورة الحجر: [٥٦].
(٤) سورة الأحزاب: [١٠-١٢].
(٥) المقريزى: إمتاع الأسماع ٢٢٣.

المسلمين.. وقال بعضهم «يعدنا محمد أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب لحاجته! ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا»[١].

وفي هذه المحنة يزرع رسول الله ﷺ الأمل في نفوس المسلمين، ويسمو بمطامحهم، فلا يقف بها عند رد الأعداء المحاصرين فحسب، ولكن يمتد بها إلى فتح بلاد فارس والشام. وتحقق هذا الأمل، وذلك الاستشراف بعد وفاة الرسول ﷺ، وصدق رسول الله ﷺ وكان حقًا علينا نصر المؤمنين.

* * *

واستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى، وتأسيًا برسوله الكريم علينا، ونحن نحاول النهوض من الدونية إلى العزة، **علينا أن نعالج الأمر بروح فياض بالأمل والطموح** حتى تستمر مسيرتنا محققة ما نحرص على تحقيقه.

وعلينا أن تكون مرجعيتنا في النهوض هى الدين الخالص انطلاقًا من كتاب الله وسنة نبية وعمل السلف الصالح» عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلتْ منها القلوب وذرفَت منها العيون، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال: أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا **(فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)**[٢].

فنحن ملزمون بالتمسك بما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال. وقد قرن النبي ﷺ سنة الخلفاء الراشدين بسنته لعلمه أن طريقهم التى يستخرجونها من الكتاب والسنة مأمونة من الخطأ، وقد أجمع المسلمون على إطلاق لقب الخلفاء الراشدين المهديين على الخلفاء الأربعة: أبى بكر وعمرو وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين. ولا شك في أن التمسك بسنة النبي الأعظم، وسنة خلفائه الأربعة من بعده فيه الفوز والنجاة، وخاصة عند كثرة الاختلاف والافتراق[٣].

وروي عن الإمام الشافعي أنه قال: المحدثات ضربان: ما أحدث مما يخالف كتابًا أو

---

(١) السابق ٢٢٨.

(٢) رواه أبو داود في كتاب السنة باب لزوم السنة ح ٤٦٠٧-٤ / ٢٠٠. والترمذي في كتاب العلم (٤٢) باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٦) ح ٢٦٧٦-٥ / ٤٤ (وقال حسن صحيح) وابن ماجة في المقدمة. باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٦) ح٤٢-١ / ٤٤ ومسند ابن حنبل ح ١٧٠٧٧، ١٧٠٧٩ بإسناد صحيح.
١٣ / ٢٧٨، ٢٧٩ والدارمي باب اتباع السنة (١٦) ح ٩٥-١ / ٤٨.

(٣) مصطفى البغا: الوافي في شرح الأربعين النووية ٢١٥.

سنة أو أثراً أو إجماعًا فهذه البدعة الضلالة. وما أحدث وفيه خير للمسلمين فهذه البدعة الحسنة(١).

وهذه «البدعة الحسنة» تدخل في نطاق الحكمة والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

والمرجعية الإسلامية أو شرع الله سبحانه وتعالى يتسم بالكمال؛ فالنبى ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن تكامل التشريع وأعلن ذلك على رءوس الأشهاد ﴿.. **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**..﴾(٢) فهو تشريع كامل يجد فيه المسلم ما يبغيه من أمور الدنيا والآخرة وهو تشريع خالد لا يبلى ولا ينتهى لأن الله سبحانه وتعالى حى قيوم لا يموت.

وهو تشريع واقعي شرعه الله على قدر «طاقة» الإنسان واستطاعته ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾(٣). ومن طوابعه «**الوسطية العادلة**» بلا إفراط أو تفريط، وهو طابع يؤكد صفة الواقعية؛ ولا عجب في ذلك فالله سبحانه وتعالى هو خالق البشر، وهو أعلم بما يصلحهم ويصلح لهم، ومن ثم كان أخذ النفس بتشريع الله يعنى اختيار الأصلح للإنسان فى دينه ودنياه. وتحقيق هذه الوسطية العادلة يعد عملية توفيق دقيقة جداً بين «الأعلى» و«الأرضي»، وهو توفيق ضروري لحياة القواعد الأخلاقية وحيوية الالتزام بها، لأنه إذا حدث «انفصام» بين العلوي والأرضي.. بين المثال والواقع فقد المثال قيمته العملية، وأصبح الواقع يتخبط بلا مرشد أو ضابط(٤).

فالعملية إذن عملية «توفيق لا «تلفيق»، والفرق بينهما كالفرق بين الطبيعى المنسجم الأجزاء و«الافتعالى» الذي قد يدل بظاهره على توافق. ولكنه في الواقع يفتقر إلى عنصر التفاعل الحقيقي بين جواهره وجزئياته، وفي التوفيق يراعى التناسب العملي بين العناصر المادية والروحية والعقلية تبعًا لمقتضيات الحال في نطاق الحدود الشرعية، أما التلفيق فلا مراعاة، المهم فيه المظهرية، ولو بالتعسف والتعنت، وبسبب هذه الفروق بين التوفيق والتلفيق كانت الفروق واضحة بين «العمل الناتج» عن كل منهما: فناتج التوفيق عمل يتسم بالصدق في المظهر والمخبر، وناتج التلفيق عمل قد يبهر بمظهره، ولكنه في حقيقته خواء، لا يحمل دلالة نفسية على تقوى أو صلاح، ومن أمثلة أعمال

(١) انظر السابق ٢١٦.
(٢) سورة المائدة: [٣].
(٣) سورة البقرة: [٢٨٦].
(٤) جابر قميحة: المدخل إلى القيم الإسلامية ٧٦.

« التلفيق » أن رجلاً وجد تمرة ملقاة في شارع من شوارع المدينة فرفعها بيده وصار ينادي بأعلى صوته « يا من ضاعت له تمرة؟؟ يا من ضاعت له تمرة؟!! » فضربه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بدرته، وقال له « كلْها يا صاحب الورع الكاذب » . نعم يا صاحب الورع الكاذب، فالمثالية هنا لم تتلبس تلبسها الحقيقي بالعمل المعروض، والطاقة المبذولة هنا لا تتناسب مع طبيعة العمل وقيمته . لذلك كانت وسطية الإسلام عادلة، وعدلها في كون صورتها التطبيقية جاءت « توفيقًا » لا « تلفيقًا »(١) .

* * *

وحتى نحقق « العزة » **يجب أن نحرص على أن نكون أصحاب « اليد العليا »** فاليد العليا – بنص حديث رسول الله ﷺ – خير من اليد السفلى . . وفسرت اليد العليا بأنها اليد المعطية، وفسرت اليد السفلى بأنها اليد « الآخذة » . . وقد عاش المسلمون ردحًا من الزمن كانوا فيه هم أصحاب العطاء في ميدان الهداية والعلم والخبرة، حتى أن أمراء الدويلات الأوروبية كانوا يتفاخرون بأن أبناءهم تلقوا العلم في جامعات قرطبة الإسلامية، وسجل التاريخ بحروف من نور أسماء ابن الهيثم وأبى بكر الرازى وابن ماجد وابن النفيس والخوارزمى وأبو القاسم الزهراوي وغيرهم من أصحاب السبق العلمى في مجال الطب والجغرافيا والبصريات والرياضيات والبحارة .

وعلى سبيل التمثيل كانت قرطبة –كما تقول « زيغريد هونكه » – تجتذب طلاب العلم من كل أنحاء الشرق بل والغرب أيضًا، تجذبهم بمدارسها العليا ومكتبتها العظيمة التى جمع لها الخليفة –الحكم الثاني وهو من أشهر علماء عصره – نصف مليون من الكتب القيمة جمعها له عشرات من رجاله، وعلق الخليفة بنفسه على هوامش عدد كبير منها قبل وفاته، قبل نهاية القرن العاشر بأربعة وعشرين عامًا .

وفى القاهرة رتب مئات من العمال والفنيين في مكتبتي الخليفة مليونين ومائتين من المجلدات وهو ما يعادل عشرين ضعفًا ما حوته مكتبة الإسكندرية الوحيدة في عصرها . ويقول « جربرت فون أورياك » الذى ارتقى كرسي البابوية في روما عام ٩٩٩ ميلادية باسم البابا سلفستروس الثاني . . يقول في حسرة عن مكتبة القاهرة « إنه لمن المعلوم تمامًا أن ليس ثمة أحد في روما له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بوابًا لتلك المكتبة، وأنَّى لنا

---

(١) انظر : جابر قميحة السابق ٧٦–٧٧، وانظر كذلك : عبد الله دراز دستور الأخلاق فى القرآن ١٢٦ .

أن نعلم الناس ونحن في حاجة لمن يعلمنا؟ إن فاقد الشيء لا يعطيه(١).

وتقول الكاتبة الألمانية: لو أردنا دليلاً آخر على مدى الهوة العميقة التى كانت تفصل الشرق عن الغرب لكفانا أن نعرف أن نسبة ٩٥٪ على الأقل من سكان الغرب في القرون ٩، ١٠، ١١، ١٢ كانوا لا يستطيعون القراءة والكتابة.. وفي الأديرة يندر بين الكهنة من يستطيع مسك القلم لدرجة أنه عام ١٢٩١م لم يكن في دير القديس جالينوس من الكهنة والرهبان من يستطيع حل الخط (أى الكتابة والقراءة)، بينما كان هذا كله يحدث فى الغرب كانت آلاف مؤلفة من المدارس فى القرى والمدن (الإسلامية) تستقبل ملايين البنين والبنات يجلسون على سجادهم الصغير يكتبون بحبر يميل إلى السواد فوق ألواحهم الخشبية، ويقرأون مقاطع من القرآن حتى يجيدوها.. ثم يتقدمون خطوة تلو الأخرى في المبادئ لقواعد اللغة، وكان الدافع إلى كل هذا هو رغبتهم الصادقة في أن يكونوا مسلمين حقًا كما يجب أن يكون المسلم، فلم يجبرهم أحد على ذلك، بل اندفعوا إليه عن رغبة وإيمان(٢).

* * *

كانت هذه هي الصورة أو مشهداً من مشاهدنا في ماضينا الجليل.. ماضي الهمة الماضية واليد العليا.. **ولن نستطيع أن نعيد هذا الماضي بما فيه من رفعة وسمو وشموخ إلا إذا أخذنا أنفسنا باسترفاد المنابع الصافية: القرآن والسنة وعمل السلف الصالح.** وبذلك تتحقق هويتنا «التى حرص أعداؤنا على محوها وإزالتها، حتى نكون طائعين مخذولين مستسلمين لأصحاب «اليد العليا» من أعداء الإسلام والعروبة، ويجب أن تكون هذه العودة عودة شاملة صادقة.. مدفوعة بإيمان قوي لا يلين فنحقق بذلك هويتنا، ويكون لنا «**شخصيتنا المستقلة**» ذات إرادة حرة.

وهذه الاستقلالية يجب أن تكون سمة لكل مناشط الحياة: في الاقتصاد والتعليم والعسكرية والشئون الاجتماعية. ففي مجال الاقتصاد أثبت العلماء والخبراء أن العرب يمكن أن يحققوا «بالتكامل الاقتصادى» وحدة اقتصادية تحقق الاكتفاء الذاتي في مجال الزراعة والصناعة، ففى بعض البلاد العربية كالسودان مثلاً ملايين من الأفدنة الخصبة لا تجد من يزرعها.. إنها لا تحتاج إلا لأيدٍ تبذر الحب فلا تجد، زيادة على الخامات الأولية التى تصلح لإقامة صناعات ثقيلة.

---

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ٣٥٣-٣٥٤.

(٢) السابق ٣٩٣.

ومن الممكن – إذا تحقق هذا التكامل الاقتصادي بين البلاد العربية – أن توسع الدائرة ليدخل فيها البلاد الإسلامية غير العربية كباكستان، وإيران وماليزيا وأندونسيا.. وفي ميدان التعليم **يجب أن يكون الحظ الأوفى للتربية الروحية والنفسية ويجب أن تكون العلوم والمعارف في مجال الدراسات الإنسانية هادفة «لتشكيل شخصية المسلم القوى الشامخ»** الذى لا يستسلم للذل والضيم والاستخذاء. يجب أن تكون المناهج والمقررات المدرسية معتمدة على الانتقاء الذي يحقق هذه الغاية، ومنها عرض سير أبطال الإسلام والعروبة الذين عاشوا باستعلاء الإيمان فلم يذلوا ولم يهونوا، والتركيز في السيرة النبوية على مواقف الصمود والإباء..

وفي تدريس الأدب تختار من النصوص الشعرية والنثرية ما يرفع من شأن **القيم الإنسانية العليا** وما أكثرها في أدبنا العربي.

وفي **مجال الحكم يجب أن يحترم الحكام إرادة شعوبهم وتكون الشورى هي أهم الوسائل** في تسيير أمور الأمة، فما خاب من استشار وما أحكم قوله تعالى **«وشاورهم في الأمر»**[1]. والشورى ليست مجرد أخذ رأى الشعب في مسألة من المسائل ولكنها تربية للشعب على «اعتبار ذاته» وهو يرى حاكمه يقدره ويستشيره وكأنما هو يحكم نفسه بنفسه، وهي كذلك تدريب للشعب على «الابتكار» بتقليب الأمور، واستقراء المسائل والمواقف لاستخلاص النافع المجدي، وهي كذلك تنمي في أفراد الشعب شعورهم بالانتماء للأرض والوطن لأنهم يشاركون بالرأى في تسيير أمورهم، وتوجيه شئونهم وسياستهم.

فإذا تشكلت شخصية المسلم بهذا التكامل الحميد وأصبح لها الاعتبار الكامل داخل وطنها غدت مهيبة فى نظر أعدائنا، «فلا ينزع من صدور أعدائنا المهابة منا»، ولا يظهر فينا «الخبث» وتتطهر قلوبنا من الوهن وهو «حب الدنيا وكراهية الموت».. وتنطلق المسيرة الإسلامية الظافرة باستعلاء الإيمان وعزة الإسلام.

د. جابر قميحة

ذو القعدة ١٤١٩

---

(١) سورة آل عمران: [١٥٩].

المــــراجــــع

١ - **آدم عليه السلام**. البهي الخولي. مكتبة التراث . القاهرة. الطبعة الثالثة.

٢ - **إحياء علوم الدين**. أبو حامد الغزالي . دار الشعب. القاهرة (د.ت).

٣ - **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)**. أبو السعود محمد بن محمد العمادي. مكتبة محمد علي صبيح. القاهرة (د.ت).

٤ - **الأدب المفرد**. الإمام البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، خرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي. دار البشائر الإسلامية . بيروت. الطبعة الرابعة ١٤١٧ - ١٩٩٧.

٥ - **أساس البلاغة**. الزمخشري: جارالله أبو القاسم محمود بن عمر. دار المعرفة. بيروت (د.ت).

٦ - **أسباب النزول**. الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. تحقيق د. السيد الجميلي. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الرابعة ١٤١٢ - ١٩٩١.

٧ - **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي. بهامش الإصابة. دار الفكر بيروت.

٨ - **الإسلام دين الفطرة والحرية**. عبد العزيز جاويش. كتاب الهلال (١٨) دار الهلال. القاهرة. سبتمبر ١٩٥٢.

٩ - **الإسلام في المعترك الحضاري**. عمر بهاء الدين الأميري. الدار العالمية للكتاب الإسلامي. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٤ - ١٩٩٣.

١٠ - **الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة في ضوء الفقه الحضاري**. عمر بهاء الدين الأميري. الدار العالمية للكتاب الإسلامي. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٤ - ١٩٩٣.

١١ - **الإسلام والاستبداد السياسي**. محمد الغزالي. دار الكتاب العربي. القاهرة (د.ت).

١٢ - **الإسلام والفلسفات المعاصرة** . د. محمد البهي. المكتب الفني للنشر. القاهرة. ١٩٥٩.

١٣- **الإسلام وحقوق الإنسان: ضرورات لا حقوق** . د. محمد عمارة. سلسلة عالم المعرفة - (٨٩) الكويت - مايو ١٩٨٥ .

١٤- **الإسلام ومشكلات الشباب: مواقف من السنة النبوية** . د. مصطفى عبد الواحد. مكة. الطبعة الأولى ١٤٠٩ - ١٩٨٩ .

١٥- **الإصابة في تمييز الصحابة**. ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد ابن علي العسقلاني. دار الفكر. بيروت (د.ت).

١٦- **الأصمعيات**. اختارها الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك. تحقيق أحمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف. القاهرة. الطبعة الرابعة ١٩٧٦ .

١٧- **أصول التشريع الإسلامي** . علي حسب الله. دار المثقف العربي. القاهرة. الطبعة السادسة ١٤٠٢ - ١٩٨٢ .

١٨- **الاعتصام**. الشاطبي: إسحاق بن إبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي. تحقيق عبد الرزاق المهدي. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٧ - ١٩٩٦ .

١٩- **إعلام الموقعين عن رب العالمين**. ابن القيم شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. باعتناء: صدقي العطار، الطبعة الأولى ١٤١٧ - ١٩٩٧ .

٢٠- **أعلا م النساء** . عمر رضا كحالة. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة العاشرة ١٤١٢ - ١٩٩١ .

٢١- **الأغاني**. أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين بن محمد القرشي. دار الشعب. القاهرة (د.ت).

٢٢- **الاكتفا في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفا** . أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي: جمعها وحققها الدكور أحمد غنيم، ونشرها في كتاب باسم: **الخلافة الراشدة والبطولة الخالدة في حروب الردة**. دار الاتحاد العربي للطباعة. الطبعة الأولى ١٣٩٩ - ١٩٧٩ .

٢٣- **إمتاع الأسماع** . المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي. تحقيق محمود شاكر. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. ١٩٤١ .

٢٤- **الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله** . د. عبد الله بن عبد المحسن التركي. كتيب المجلة العربية رقم ١٢ . الرياض - ذو الحجة ١٤١٨ - أبريل ١٩٩٧ .

٢٥- **الإنسان في القرآن** . عباس العقاد . مكتبة نهضة مصر . القاهرة (د.ت) .

٢٦- **الإنسان : وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم** . د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي. مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة الأولى ١٤١٠ - ١٩٩٠ .

٢٧- **البغاء**. محمد فريد جفيدي، مطبعة النصر. القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٥٢ - ١٩٣٤ .

٢٨- **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب** الألوسي. محمود شكري. المطبعة الرحمانية. القاهرة. ١٩٢٤ .

٢٩- **تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام المجلد الأول : المغازي** . الحافظ شمس الدين الذهبي. تحقيق محمد محمود حمدان، دار الكتاب المصري اللبناني القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٠٥ - ١٩٨٥ .

٣٠- **تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)** . أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة - الطبعة الرابعة ١٩٧٧ .

٣١- **التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي** . عبد القادر عودة. دار الكتاب العربي. بيروت (د.ت) .

٣٢- **التعريفات** . الجرجاني : أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني. وزارة الثقافة. بغداد (د.ت) .

٣٣- **التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام**. محمد الغزالي. دار الكتاب العربي. القاهرة. د.ت) .

٣٤- **تفسير الجلالين**. جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي . دار المعرفة . بيروت (د.ت) .

٣٥- **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**. محمد عبده ورشيد رضا. دار المنار. القاهرة. الطبعة الثالثة ١٩٦٧ .

٣٦- **تفسير القرآن العظيم (تفسر ابن كثير)**. إسماعيل بن عمر بن ضوء بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي. أبو الفدا عماد الدين، تعليق طه عبد الرءوف سعد. مكتبة الإيمان. المنصورة. الطبعة الأولى ١٤١٧ - ١٩٩٦ .

٣٧- **تفسير النسفي** . عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، عيسى البابي الحلبي . القاهرة (د.ت) .

٣٨- **التفكير فريضة إسلامية** . عباس محمود العقاد . دار الهلال . القاهرة (د.ت) .

٣٩- **تلبيس إبليس**. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي . إدارة الطباعة المنيرية . القاهرة . الطبعة الثانية ١٣٦٨ .

٤٠- **تنظيم الإسلام للمجتمع** . محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي . القاهرة (د.ت) .

٤١- **توجيهات نبوية**. عبد المتعال الصعيدي . المطبعة النموذجية . القاهرة (د.ت) .

٤٢- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)** . محمد بن جرير الطبري . ضبط وتوثيق صدقي جميل العطار . دار الفكر . بيروت . ١٤١٥ - ١٩٩٥ .

٤٣- **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)** . أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي . دار الشعب . القاهرة (د.ت) .

٤٤- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي** . شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية . تحقيق أبي حذيفة عبد الله بن عالية . دار الكتاب العربي . بيروت . ١٤١٣ - ١٩٩٣ .

٤٥- **الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام (دارسة مقارنة)** . د. عبد الحكيم العيلي . دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٨٣ .

٤٦- **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه** . عباس محمود العقاد . كتاب الهلال رقم ١٦٩ . دار الهلال . القاهرة . أبريل ١٩٦٥ .

٤٧- **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**. د. أحمد الحوفي . مكتبة نهضة مصر . القاهرة . الطبعة الثانية ١٩٥٢ .

٤٨- **الخراج**. أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم . تعليق محمد البنا . دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٨١ .

٤٩- **خلق المسلم** . محمد الغزالي . دار الريان للتراث . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٠٨ - ١٩٨٧ .

٥٠- **دستور الأخلاق في القرآن** . د. محمد عبد الله دراز . تعريب وتحقيق وتعليق د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة . بيروت ١٣٩٣ - ١٩٧٣ .

٥١- **ديوان الحماسة**. اختيار أبي تمام حبيب بن أوس الطائي. شرح الخطيب التبريزي. مكتبة النوري دمشق (د.ت).

٥٢- **الذريعة إلى أحكام الشريعة** . الراغب الأصفهاني : أبو القاسم الحسين بن محمد. مطبعة الوطن. القاهرة. ١٨٨٩ .

٥٣- **ذيل الأمالي والنوادر**. أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الجيل – بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٧ – ١٩٨٧ .

٥٤- **الرحيق المختوم** . صفي الدين المباركفوري، التاريخ العربي. بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ – ١٩٩٦.

٥٥- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الألوسي)**. محمود شاكر الألوسي البغدادي. دار الفكر. بيروت ١٤١٧ – ١٩٩٧ .

٥٦- **زاد المعاد في هدي خير العباد**. أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن القيم. مكتبة محمد علي صبيح. القاهرة (د.ت).

٥٧- **الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام (دراسة مقارنة)**. د. عبد السلام الترمانيني. عالم المعرفة (٨٠) الكويت أغسطس ١٩٨٤ .

٥٨- **سنن أبي داود**. أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي. دار الحديث القاهرة – ١٤٠٨ – ١٩٨٨ .

٥٩- **سنن الترمذي (الجامع الصحيح)**. أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. تحقيق إبراهيم عوض. دار الحديث. القاهرة (د.ت).

٦٠- **سنن الدارمي**. أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي. تحقيق د. مصطفى البغا. دار القلم. دمشق. الطبعة الثانية ١٤١٧ – ١٩٩٦ .

٦١- **سنن النسائي**. أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي. بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي. عناية عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب. الطبعة الرابعة ١٤١٤ – ١٩٩٤ .

٦٢ – **السيرة النبوية لابن هشام**: أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري. تحقيق وضبط مصطفى السقا وآخرين – مصطفى الحلبى. القاهرة. الطبعة الثانية – ١٣٧٥ – ١٩٥٥.

٦٣ – **سيرة عمر بن الخطاب**: علي وناجي الطنطاوي المكتبة العربية. دمشق (د. ت).

٦٤ – **شرح القصائد العشر** الخطيب التبريزى أبو زكريا يحيى بن على. إدارة المطبعة المنيرية. القاهرة ١٣٦٩.

٦٥ – **شرح ديوان أمية بن أبى الصلت**: سيف الدين الكاتب. مكتبة الحياة. بيروت (د. ت).

٦٦ – **الشعر والشعراء**: ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفى. دار التراث العربى. القاهرة. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٦٧ – **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: القاضى عياض بن موسى اليحصبى الأندلسى. تحقيق محمد أمين قرة وآخرين. مؤسسة علوم القرآن. دمشق (د. ت).

٦٨ – **شمس العرب تسطع على الغرب**: المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي. دار الآفاق الجديدة بيروت. الطبعة الخامسة ١٤٠١ – ١٩٨١.

٦٩ – **الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية**: إسماعيل بن حماد الجوهرى. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٩ – ١٩٧٩.

٧٠ – **صحيح مسلم**: الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى. بشرح النووى. الإمام شرف بن مري حسن بن حسين بن حزام دار الشعب. القاهرة (د.ت).

٧١ – **الصديق أبو بكر**: د. محمد حسين هيكل – مطبعة مصر. القاهرة ١٣٦٢.

٧٢ – **صفوة التفاسير**: محمد على الصابونى. دار القرآن. بيروت. الطبعة الرابعة ١٤٠٢ – ١٩٨١.

٧٣ – **الطبقات ا لكبرى**: ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى. تحقيق حمزة التشرتى وآخرين. المكتبة القيمة. القاهرة (د. ت).

٧٤ – **طبقات فحول الشعراء**: محمد بن سلام الجمحي شرح محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. القاهرة (د. ت).

٧٥ – **عبقرية الصديق**: عباس العقاد. كتاب الهلال (٥٤). دار الهلال القاهرة. سبتمبر ١٩٥٥.

٧٦ - **العبودية**: ابن تيمية: تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانى الدمشقي. تحقيق على الأثري. مكتبة دار الأصالة الإسماعيلية مصر. الطبعة الثانية ١٤١٦ - ١٩٩٥.

٧٧ - **العرب قبل الإسلام: أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم**: محمود عرفة محمود. دار الثقافة العربية القاهرة ١٩٩٨.

٧٨ - **عقيدة التوحيد في القرآن الكريم**: د. محمد أحمد محمد عبد القادر ملكاوي. دار ابن تيمية. الرياض ١٤١٢ - ١٩٩٢.

٧٩ - **العلاقات الدولية في الإسلام** محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي. القاهرة ١٤١٥ - ١٩٩٥.

٨٠ - **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي دار الجيل. بيروت (د. ت).

٨١ - **عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة (دراسة مقارنة)** د. سليمان محمد الطماوي. دار الفكر العربي - القاهرة. الطبقة الأولى ١٩٦٩.

٨٢ - **العودة إلى الإيمان**: هنري لنك. ترجمة الدكتور ثروت عكاشة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٦.

٨٣ - **غذاء العبودية** سعيد حوى. رسالة مطبوعة مع رسائل أخرى في مجلد واحد باسم (**كي لا نمضي بعيداً عن احتياجات العصر**) دار السلام. القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

٨٤ - **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي** د. يوسف القرضاوى. مكتبة وهبة. الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٧٧.

٨٥ - **فتاوى ابن تيمية**: تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني. مكتبة العبيكان - الرياض - ١٤١٨ - ١٩٩٧.

٨٦ - **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ترقيم وتنظيم محمد فؤاد عبد الباقي. دار الريان للتراث. القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٠٧ - ١٩٨٦.

٨٧ - **الفروق اللغوية**: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيي بن مهران اللغوي العسكري. ضبط وتحقيق حسام الدين القدسي. دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠١ - ١٩٨١.

٨٨ - **فقه السيرة** محمد الغزالي. دار الكتاب العربي. القاهرة - ١٣٧٣ - ١٩٥٣.

٨٩ - **فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة**. د. محمد سعيد رمضان البوطي. دار الفكر المعاصر - بيروت. الطبعة العاشرة ١٤١١ - ١٩٩٧.

٩٠ **الفوائد**: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. تحقيق محمد عثمان الخشب دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الثانية. ١٤١٤ - ١٩٩٤.

٩١ - **في ظلال القرآن** سيد قطب. دار الشروق القاهرة. الطبعة السابعة ١٣٩٨ - ١٩٧٨.

٩٢ - **القاموس المحيط**: الفيروزابادي مجد الدين محمد بن يعقوب. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الرابعة ١٤١٥ - ١٩٩٤.

٩٣ - **قصص الأنبياء**: ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي. دار المعرفة. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٨ - ١٩٩٧.

٩٤ - **قصة الحضارة**. ول. ديورانت. ترجمة محمد بدران. دار الجيل. بيروت. ١٤٠٨ - ١٩٨٨.

٩٥ - **القومية والعلمانية والدين: قراءة في الخبرة الغربية**: د. عبد العزيز صقر. بحث نشر في مجلة المنار الجديد - القاهرة - العدد الثاني ذو الحجة ١٤١٨ - أبريل ١٩٩٨.

٩٦ - **كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**. الإمام محمد بن عبد الوهاب. تحقيق عبد القادر الأرناءوط. مكتبة دار السلام - الرياض - ١٤١٣.

٩٧ - **لباب النقول في أسباب النزول**: السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. دار إحياء العلوم - بيروت. الطبعة الثامنة - ١٤١٤ - ١٩٩٤.

٩٨ - **لسان العرب**: ابن منظور: عبد الله محمد بن المكرم الأنصاري الخزرجي. دار المعارف. القاهرة (د. ت).

٩٩ - **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** أبو الحسن الندوي. دار القلم. الكويت. الطبعة السابعة عشرة. ١٤١٢ - ١٩٩٢.

١٠٠ - **مبادئ القانون الروماني: تاريخه ونظمه**: د. محمد عبد المنعم بدر - د. عبد المنعم البدراوي دار الكتاب العربي. القاهرة - ١٩٥٦.

١٠١ - **مبادئ تاريخ القانون**: د. صوفي أبو طالب مكتبة النهضة المصرية. القاهرة - ١٣٧٦ - ١٩٥٧.

١٠٢ - **مبادئ علم النفس العام**. د. يوسف مراد دار المعارف. القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٥٤.

١٠٣ - **المجتمع الإنساني في ظل الإسلام** محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي. القاهرة (د. ت).

١٠٤ - **مجمع الأمثال**: الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري. مكتبة عبد الرحمن محمد. القاهرة - ١٩٥٢.

١٠٥ - **مجموعة الرسائل والمسائل**: ابن تيمية - تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني. دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٦ - ١٩٩٦.

١٠٦ - **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية**: محمد الخضري. المكتبة التجارية - القاهرة - الطبعة السادسة - ١٣٧٠.

١٠٧ - **مختصر شعب الإيمان للبيهقي**: اختصره أبو المعالي عمر بن عبد الرحمن القزويني - تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. دار ابن كثير. دمشق. الطبعة الخامسة ١٤٠٨ - ١٩٨٨.

١٠٨ - **المدخل إلى القيم الإسلامية**. د. جابر قميحة. دار الكتاب المصري اللبناني. القاهرة. الطبعة الأولى - ١٤٠٤ - ١٩٨٤.

١٠٩ - **المرأة بين البيت والمجتمع**: البهي الخولي. دار الكتاب العربي. القاهرة (د. ت).

١١٠ - **المرأة في الشعر الجاهلي** د. أحمد الحوفي. مكتبة نهضة مصر (د. ت).

١١١ - **المرأة منذ النشأة بين التجريم والتكريم** د. أحمد غنيم. مطبعة الكيلاني. القاهرة ١٤٠١ - ١٩٨٠.

١١٢ - **مركز المرأة في قانون حمورابي وفي القانون الموسوي**: جان أمل ريك تعريب سليم العقاد. المطبعة العصرية بمصر ١٩٢٦.

١١٣ - **المستدرك على الصحيحين**: الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ١٤١١ - ١٩٩٠.

١١٤ - **المسند**: للإمام أحمد بن حنبل شرحه ووضع فهارسه: أحمد محمد شاكر وحمزة أحمد الزين. دار الحديث - القاهرة - ١٤١٦ - ١٩٩٥.

١١٥ - **مسند الإمام زيد**: زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. دار الكتب العلمية بيروت (د. ت).

١١٦ - **مسيرة الدعوة الإسلامية**: د. موسى مصطفى العبيدان. من إصدارات النادي الأدبي بتبوك - السعودية - الطبعة الأولى - ١٤١٨ - ١٩٩٧.

١١٧ - **مصرع الفقر في الإسلام**: علي شحاته رزق. مطبعة دار التأليف. القاهرة - ١٣٧٠ - ١٩٥١.

١١٨ - **معالم السنة النبوية** د. عبد الرحمن العتر مكتبة المنار - الزرقاء - الأردن ١٤١٢ - ١٩٩٢.

١١٩ - **معجم الأمثال العربية**: خير الدين شمس باشا. مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الطبعة الأولى - ١٤١٧ - ١٩٩٧.

١٢٠ - **معجم لغة الفقهاء** د. محمد رواس قلعجي. دار النفائس - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٦ - ١٩٩٦.

١٢١ - **معجم مقاييس اللغة**: أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي. تحقيق عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الثالثة - ١٤٠٢.

١٢٢ - **مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير** الفخر الرازي: محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر. المطبعة الشرقية. القاهرة - الطبعة الثانية - ١٣٢٤.

١٢٣ - **المفردات في غريب القرآن**: الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد. تحقيق وضبط محمد خليل عيتاني. دار المعرفة - بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٨ - ١٩٩٨.

١٢٤ - **الملل والنحل**: الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر. تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل. مؤسسة الحلبي. القاهرة ١٣٨٧ - ١٩٦٨.

١٢٥ - **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**: ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد تحقيق د. زينب إبراهيم. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

١٢٦ - **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية. الجزء الأول: السيرة النبوية العطرة**. د. أحمد شلبي مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. الطبعة العاشرة ١٩٨١.

١٢٧ - **موسوعة السياسة** د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون. المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٣.

١٢٨ - **الموسوعة الفقهية**: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت. الطبعة الثانية ١٤٠٩ - ١٩٨٩.

١٢٩ - **الموطأ**: الإمام مالك بن أنس صححه وخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي دار الشعب. القاهرة (د. ت).

١٣٠ - **نظام الرق في الإسلام**: عبد الله ناصح علوان. مكتبة دار السلام. القاهرة. الطبعة الرابعة ١٤١٤ - ١٩٩٣.

١٣١ - **نهج البلاغة**: وهو ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين على بن أبي طالب. دار الشعب. القاهرة (د. ت).

١٣٢ - **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**. محمد الخضري. دار الحديث. القاهرة. الطبعة الثانية ١٤١٢ - ١٩٩٢.

١٣٣ - **الوافي في شرح الأربعين النووية** د. مصطفى البغا - محيي الدين ديب مستو. دار الكلم الطيب - دمشق - الطبعة الثامنة ١٤١٥ - ١٩٩٥.

١٣٤ - **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر - بيروت - ١٣٩٧ - ١٩٧٧.

الفهرس

الفصل السادس (١١٩ - ١٣٨)

عزة المسلم: الشعور.. والسلوك.. والمصدر

الخاتمة (١٤١)

من الدونية إلى العزة ولكن كيف ؟؟